العلماء بين الحرب والسياسة
في العصر الأيوبي
(أسرة شيخ الشيوخ)

الدكتور حامد زيان غانم
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٧٨

سحبه الباحث عماد أمير
ونسقه وفهرسه
جروب معين التاريخ لأهل التأريخ

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع كامل صدقى بالفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦

العلماء بين الحرب والسياسة
في العصر الأيوبي
(أسرة شيخ الشيوخ)

الدكتور حامد زيان غانم

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٧٨

دار الثقافة للطباعة والنشر

بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لعب العلماء دوراً بارزاً فى تاريخ العالم الاسلامى فى العصور الوسطى ، سواء من النواحى العلمية والدينية أو من النواحى الحربية والسياسية .وقد ظفرت النواحى العلمية والدينية بقسط وافر من الدراسة ، فى حين مازال الدور الذى لعبة العلماء فى مضمار الحرب والسياسة يفتقر إلى مزيد من الدراسة والبحث .

ويعتبر العصر الأيوبى من العصور التى كانت الحرب والسياسة من أبرز معالمه .فالمعروف أن الحروب الصليبية أشتد أوارها إبان العصر الأيوبى ، وقام السلاطين الأيوبيون بدورهم كاملا فى تحمل أعباء القتال ضد الصليبيين وإقامة جبهة إسلامية موحدة. كذلك لم يتأخر العلماء عن المشاركة فى تلك المعارك سواء بعلمهم أو بأرواحهم .

ومن بين أولئك العلماء تبرز أسرة شيخ الشيوخ التى تقلد أفرادها عدة وظائف دينية وعلمية فى مصر والشام خلال العصر الأيوبى ، واعتمد عليهم السلاطين الأيوبيون إعتماداً كبيراً فى مختلف ميادين الحرب والسياسة .

وفى هذه الدراسة الموجزة تناولت بالشرح دور أفراد أسرة شيخ الشيوخ فى مضمار الحرب والسياسة طيلة العصر الايوبى ، ومشاركتهم الفعاله فى ميادين القتال وفى مختلف الدوائر السياسية والدبلوماسية .

وبعد ، فانى أرجو أن يجد القارىء الكريم فى هذه الدراسة المتواضعة متعة وفائدة ، ولعلى وفقت فى سد حاجة المكتبة العربية إلى مثل هذه الدراسة .

والله ولى التوفيق ؟

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

القاهرة فى { رجب ١٣٩٨
{ يونيه ١٩٧٨

حامد زيان غانم زيان

أصل أسرة شيخ الشيوخ

يشير المقريزى(1) إلى أن « أصلهم الذى ينتسبون إليه حمويه الجوينى(2) بن على، ويقال انه من ولد رزم بن يونان أحد قواد كسرى أنو شروان ،وتولى قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان ودبر دولته » ومعنى هذا أن أصل هذه الأسرة فارسى (3) وحمويه هذا كان جد كل من محمد وأبى سعيد اللذين كانا من امراء وقادة خراسان لكنهما « تركا الدنيا وأقبلا على طريق الآخرة » . ولم يلبث محمد أن وصل إلى أعلى درجات الزهد والتصوف ، ومن أحفاده عماد الدين عمر بن على بن محمد بن حمويه الذى قدم دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود (٥٤١ — ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ — ١١٧٣)(4) .

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ ٢ ص ٣٢ .

(٢) نسبة إلى جوين ، وهى كورة جليلة نزهة على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور ، وبينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ . انظر : ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ١٩٢ .

(3) Gottshalk. Awlad el shaykh, P. 765

(٤) ومن الجدير بالذكر انه اشتهر عدد كبير من أسرة حمويه بالعلم والصلاح بخراسان أمثال سعد الدين محمد بن المؤيد بن عبد الله بن على بن حمويه الذى كان صاحب أحوال ورياضيات وله أصحاب ومريدون (توفى عام ٥٦ هـ / ١٢٥٢م) وكذلك كان ابنه صدر الدين أبو المجامع الصوفى الزاهد (توفى عام ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م) انظر : ابو المحاسن: المنهل الصافى المستوفى بعد الوافى ، جـ ١ ص ١٤١ وحاشية رقم ٤، Gottshalk : Awlad el shaykh, p. 765.

والمعروف أن الملك العادل نور الدين محمود كان يكرم العلماء والفقهاء ويعظمهم[1] ، فكان يجمعهم عنده للبحث والنظر ويستقدمهم اليه من شتى البلاد[2]. وكان مع عظمته إذا دخل اليه الفقيه أو الصوفى يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه[3] ومن بين أولئك العلماء كان الفقيه الزاهد عماد الدين عمر بن على بن حمويه الذى رحب به نور الدين محمود .

ولم يلبث أن أنس نور الدين محمود من عماد الدين عمر بن حمويه علماً وزهداً فعهد اليه بولاية خوانق[4] دمشق ، وقربه إليه « وكان يحترمه ويحبه »[5] .

---

(١) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ص ٦٠٧ — ٦٠٨ ،

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٥ ص ٢٧٣

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

(٣) حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ٢١١ .

(٤) خوانق جمع خانقاه ، وهى كلمة فارسية معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه وهو الموضع الذى يأكل فيه الملك . والخوانق احدثت فى ديار الاسلام فى حدود الأربعمائة هجرية ، وجعلت لتختلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى .

انظر : المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ص ٢٧١ ،

سبط بن العجمى : كنوز الذهب فى تاريخ حلب ، ورقه ١٣٦ (مخطوط) .

(٥) ابو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ ،

النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ٢ ص ١٥٤ .

وبتولية عماد الدين عمر مشيخة « خانقاه » دمشق ، اطلق عليه لقب « شيخ الشيوخ » [1] ، وهو اللقب الذى عرف به شيخ الخانقاه . [2] .

واستمر عماد الدين عمر بلى مشيخة دمشق حتى وفاته عام ٥٧٧هـ (١١٨١م)[3] فعهد السلطان صلاح الدين الايوبى (٥٦٤ – ٥٨٩هـ / ٨-١١-١١٩٣م) الذى كان فى تلك الفترة مقيماً بدمشق يكافح من أجل توحيد الجبهة الاسلامية بعد وفاة نور الدين محمود — إلى صدر الدين محمد بن عماد الدين عمر بن حموية بولاية مشيخة دمشق ، ومن ثم صار صدر الدين بن حموية شيخ شيوخ دمشق . [4]

---

(١) ابن ايبك : الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٦٨ – ٦٩ . هذا اللقب كان بالغ التشريف عند المسلمين ، ويبدو أن المؤرخين الصليبيين أدركوا هذا تماماً فذكروا ذلك فى كتاباتهم .

(٢) شيخ الخانقاه لقب ووظيفه ، وهى من الوظائف الدينية ، واحدى أصناف وظائف أرباب الأقلام ، بمعنى أن صاحبها كان لابد أن يتمتع بقسط وافر من العلم .

انظر : القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، جـ٩ ص٢٥٥ – ٢٥٦ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ص ٩٠

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٣ ص ٢٥٧ ،

النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ٢ ص١٥٤ ،

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٣٢ .

وقد سبق لصلاح الدين الأيوبي التعرف على الشيخ صدر الدين بن حموية هذا من قبل، وذلك عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م) عندما أرسله الخليفة العباسي أبو العباس أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥—٥٦٢٢هـ/١١٨٠ — ١٢٢٥م) برسالة إلى صلاح الدين وهو بمصر. ويبدو أن صلاح الدين قد أنس من صدر الدين علما وحنكة سياسية في هذه المقابلة، مما دفعه إلى إقراره في مشيخة دمشق عقب وفاة والده عماد الدين عمر كما سبق أن أشرنا [1].

وأجمعت المصادر التاريخية على مدح صدر الدين بن حمويه هذا، ووصفته بأنه كان فاضلا فقيها لا يتكلم إلا فيما يعنيه، له الحرمة الوافرة، [2]، نال قسطا كبيرا من العلم والمعرفة بخراسان [3]، كبير القدر [4]، جليلا معظما [5].

ولم يلبث أن وصل صدر الدين محمد بن حمويه إلى درجة كبيرة من العلم والمعرفة أهلته لأن يخلف الشيخ قطب الدين النيسابوري [6] في التدريس بالزاوية

---

(١) ابن ايبك: الدر المطلوب، ص٦٨ — ٦٩،

Gottshalk : Awlad el shaykh, P. 766

(٢) ابو شامه: ذيل الروضتين، ص١٢٥،

أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٣ ص ١٢٧.

(٣) أبو شامه: ذيل الروضتين، ص ١٢٥.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جـ١ ص٤٠٩ — ٤١٠

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣ ص٢٥٧.

(٦) هو أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقية الشافعي الملقب قطب الدين ولد عام ٥٠٥هـ / ١١١١م بنيسابور وتفقه بها وبمرو، ثم =

الغربيه بجامع دمشق فى رمضان عام ٥٧٨ هـ / يناير ١١٨٣ م [١] .

وقد تزوج صدر الدين محمد بن حمويه بإمرأتين ، الأولى كانت ابنة الشيخ قطب الدين النيسابورى العالم المشهور سابق الذكر ، وأنجب منها ولده شمس الدين الذى توفى فى حياته . أما الزوجه الثانية ، فقد تزوجها بعد وفاة والده عام ٥٧٧هـ ، وهى ابنة القاضى المشهور شهاب الدين بن أبى عصرون ، وأنجب منها أولاده الأربعه المشهورين وهم : عماد الدين عمر ، كمال الدين أحمد ، معين الدين حسن وفخر الدين يوسف . [٢]

ولم يلبث السلطان صلاح الدين الأيوبى أن نقل نشاط الشيخ صدر الدين بن حمويه من بلاد الشام إلى الديار المصريه ، وذلك عندما عهد إليه بمشيخة « سعيد السعداء » ، ومشيخة سعيد السعداء هذه هى أول خانقاه تقام بالديار المصرية [٣] ،

= تولى التدريس بالمدرسة النظاميه بنيسابور ، وقدم بغداد ووعظ وتكلم بها ، ثم قدم دمشق ودرس بالمدرسه المجاهديه بالزاويه الغربيه من جامع دمشق ، كما تولى التدريس بمدارس حلب الشهباء ، ثم مضى إلى همدان وقام بالتدريس بها كذلك ، ثم عاد إلى دمشق واستقر بالزاويه الغربيه بجامع دمشق ، حتى وفاته فى شهر رمضان عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م ، وله مؤلفات فقهيه عديده .

أنظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١) أبو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٣ ص ٢٥٧

المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ص ٣٢ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٣٨ .

وكانت فى الأصل داراً لسعيد السعداء قنبر عتيق الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، ثم وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبى داراً للصوفيه عام ٥٦٩هـ (١١٧٣م)، (٢) وعهد بمشيختها إلى جماعة من أكابر الشيوخ .

وكان من الضرورى أن يتمتع شيخ الخانقاه بقسط وافر من العلم والمعرفة بالإضافه إلى زهده ونسكه وعبادته (٣)، ولم يجد صلاح الدين الأيوبى رجلا

---

(٢) يطلق على هذه الخانقاه اسم الخانقاه الصلاحيه أو دار سعيد السعداء، وهى بخط رحبة باب العيد من القاهره. وقد وقفها السلطان صلاح الدين للفقراء الصوفيه الواردين من البلاد الشاسعه، ورتب لهم فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزا،وبنى لهم حماما بجوارهم. وكان سكانها من الصوفيه يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم. وكان لأهل خانقاه سعيد السعداء هيئه فاضله يوم الجمعه، ذلك أنه يخرج شيخ الخانقاه منها وبين يديه خدام الربعه الشريفه، والصوفيه مشاة، إلى باب الجامع الحاكمى، فيدخلون إلى مقصوره تعرف بمقصورة البسملة حيث يقرأون القرآن ثم يؤدون الصلاه، ثم يعودون إلى الخانقاه بنفس هيئتهم أثناء الذهاب وكان أهالى مصر يأتون إلى القاهره ليشاهدوا صوفيه خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون منها إلى صلاة الجمعه، كى تحصل لهم البركه والخير بمشاهدتهم .

انظر : المقريزى : الخطط، جـ ٢ ص ٤١٤ – ٤١٥

(٣) يشير القلقشندى إلى أن شيخ الخانقاه كان دائما يوصف بالورع =

يجمع كل هذه الصفات سوى الشيخ صدر الدين بن حمويه ، لذلك قلده مشيخة دار سعيد السعداء ، ومن ثم صارت مشيخة هذه الخانقاه حكراً على صدر الدين بن حمويه وأولاده من بعده [1] .

وعلى هذا النحو ازدادت الصلات بين السلطان صلاح الدين الأيوبى وبين الشيخ صدر الدين بن حمويه . ويبدو أن صلاح الدين قد أعجب كثيرا بعلم صدر الدين بن حمويه ، وهو الأمر الذى دفعه إلى أن يعهد إليه كذلك بأمر المدرسه الصلاحيه – التى تقع بجوار الإمام الشافعى – عا ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) [٢] وهذه المدرسه بناها السلطان صلاح الدين الايوبى عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) جريا وراء سياسة انشاء المدارس الخاصه بتدريس المذهب السنى على مذاهبه الأربعه ، وذلك للقضاء على المذهب الشيعى [٣] ، وعهد صلاح الدين بالتدريس فى هذه المدرسه إلى الشيخ أبى البركات محمدبن سعيد بن على الخبوشانى [٤] ، ورتب

= والزهد والنسك وقطع العلائق من الدنيا وتربية المريدين وتسليكهم والوقوف على طريق السلف الصالح » .

صبح الأعشى ، جـ ١١ ص ٩٠ .

(١) السيوطى : حسن المحاضره ، جـ ٢ ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

(٢) السيوطى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٣) عن هذه السياسه والاجراءات التى اتبعت لتطبيقها أنظر :

حامد زيان : بعض مظاهر الحياه الإجتماعيه بمصر زمن صلاح الدين الايوبى ، ص ٦٥ - ٧٥ .

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ص ٤١٤ - ٤١٥ =

له المعلوم اللازم من مال وجرايه (١) . وبلغت هذه المدرسه شأوا عظيما لدرجة أن السيوطى وصفها بأنها « تاج المدارس »(٢) . واستمر الخبوشانى يقوم بالتدريس فى هذه المدرسة حتى وفاته عام ٥٨٧ ﻫ (١١٩١ م) فعهد صلاح الدين بالتدريس بها إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه كما سبق أن أشرنا .

ولم يتغير وضع صدر الدين بن حمويه بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى (عام ٥٨٩ ﻫ / ١١٩٣ م) وإنما إزداد إحتراما ، فيشير أبو شامه إلى أنه — أى صدر الدين — « كانت له الحرمه الوافره عند العادل بن أيوب وأولاده »(٣) . وأقره العادل (٥٩٦ — ٦١٥ ﻫ / ١١٩٩ — ١٢١٨ م) بمشيخة سعيد السعداء كما كان الحال زمن صلاح الدين الأيوبى ، بالإضافه إلى قيامه بالتدريس بالمدرسة الصلاحية وفى نفس الوقت عهد إلية بالتدريس بالمشهد الحسينى(٤) .

• • •

= الخبوشانى ، هو ذلك العالم الزاهد الذى أسقط من على منابر مصر فى أول جمعه من شهر المحرم عام ٥٦٧ ﻫ الخلافه الفاطمية ، ودعى للخليفة العباسى بالديار المصرية .

(١) عن مقدار هذا المعلوم والجراية انظر :

السيوطى : حسن المحاضره ، ج ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضره ، ج ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٣) أبو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥

(٤) ابو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ ،

=

ولم تقتصر المهام التى أداها صدر الدين بن حمويه على التدريس بالمدارس الشافعية بالديار المصرية أو الاشراف على خانقاه سعيد السعداء أو شغل بعض الوظائف الدينية الأخرى[1] ، وإنما تعدى هذا إلى شغل عدة وظائف سياسية . ومن بين تلك المهام السياسية التى تولاها صدر الدين بن حموية ماحدث عام ٦١٤ﻫ (١٢١٧ م) عندما أرسله العادل الأيوبى إلى الخليفه العباسى الناصر لدين الله[2] وأغلب الظن أن العادل أوصاه بحمل أنباء وصول الحمله الصليبيه الخامسة إلى عكا[3] ، إلى مسامع الخليفه العباسى ، وحث الخليفه على استثاره همة المسلمين

= الصفدى . الوافى بالوفيات ، ج ٤ ص ٢٥٩ ،

ابو المحاسن : النجوم الزاهره ، ج ٦ ص ١٥٠ — ١٥١ .

والمشهد الحسينى هو ذلك المكان الذى دفن فيه رأس الحسين — رضى الله عنه — بعد إحضارها من عسقلان ، وذلك فى خلافة الخليفه الفائز بالله الفاطمى عام ٥٤٩ ﻫ (١١٥٤ م) ، وبعد أن استولى صلاح الدين الايوبى على الديار المصرية اعاد بها المذهب السنى ، وجعل بالمشهد الحسينى حلقة تدريس وفقهاء ، وأنشأ بجواره مدرسة سميت بالمشهد .

انظر : المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٢٧ .

(١) تولى صدر الدين القضاء بالديار المصرية عام ٥٩٦ ﻫ/١١٩٩ م

انظر : النابلسى : لمع القوانين المضية ص ٧٢ .

(٢) ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ١٩٣ .

(٣) وصلت إلى عكا عام ٦١٤ ﻫ (١٢١٧ م) جموع الصليبيين ، تلبية = للدعوة التى وجهها البابا أنوسنت الثالث ، وتعهدها البابا هونريوس الثالث من بعده للقيام بحمله صليبية على دلتا مصر . وبعد أن تجمعت الحشود الصليبية بعكا =

للنهوض من أجل الجهاد ضد الصليبيين(١) .

ومن المهام السياسية الأخرى التى قام بها شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، تلك الرسالة الخطيرة التى حملها من الملك الكامل محمد نائب السلطنه بالديار المصرية إلى والده السلطان العادل الأيوبى ، أثناء مقام الأخير بعالقين عام ٦١٥ﻫ (١٢١٨م) والتى تفيد استيلاء الصليبيين — الحملة الصليبية الخامسة — على برج السلسلة(٢)

= قادها حنادى برين (١٢١٠ — ١٢٢٥ م) ملك الصليبيين فى عكا إلى شمال الدلتا ، حيث رست السفن الصليبية يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الاول عام ٦١٥ ﻫ (١٢١٨ م) أمام دمياط

وعن هذه الحمله انظر :

ابن ابى الهيجاء : تاريخه ،ورقه ١٩١(مخطوط) ،

ابن واصل : مفرج الكروب ﺟ ٣ ص ٢٥٨ ،

الحوى : التاريخ المنصورى ،ص ١٣٤ ،

Gronsset : Hist des Croisades, T. 3, pp. 191—231 ,

Tout : The Empire and the papcy, Vol. 2, pp. 451—452.

(١) عن أحداث عام ٦١٤ ﻫ أنظر :

ابن واصل : مفرج الكروب ﺟ ٣ ص ٢٥٤ — ٢٥٦ .

(٢) استولى الصليبيون على برج السلسلة بعد ثلاثة أشهر من تاريخ نزولهم على دمياط .

أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ﺟ ٤ ص ١٥ ،

المقريزى :السلوك لمعرفة دول الملوك ، ﺣ١ ، ق١ص١٩٠

الذى يعتبر على حد تعبير مؤرخى العصور الوسطى « قفل الديار المصرية »[1] .

وهذه السفاره الأخيرة توضح مدى ما وصل إليه صدر الدين بن حموية من مكانه كبيرة وثقه عالية عند حكام مصر ، فمثل هذه الاخبار العسكرية لا يمكن أن يعهد أولو الأمر بها إلا لمن يكون محل ثقتهم وقادراً على حفظ هذه الأمانة .

ومن المهام السياسية التى أداها شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية ، تلك السفاره التى قام بها عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) والتى أوفده فيها السلطان الكامل محمد (٦١٥ — ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ — ١٢٣٧ م) سلطان الديار المصرية ، إلى دار الخلافه العباسية ببغداد ، مستنجداً بالخليفة العباسى وامراء المسلمين للوقوف جميعا يداً واحده ضد الصليبيين الذين استولوا على دمياط[2] .

وبعد أن انتهى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية من إبلاغ الخليفة العباسى بأنباء سقوط دمياط فى يد الصليبيين ،غادر بغداد ليطوف بعدد من البلاد الاسلامية الشرقية، فى جولة دبلوماسية ، بقصد حث مختلف الامراء المسلمين على التكاتف والوقوف صفا واحدا تجاه الحملة الصليبية الخامسة[3] ؛ غير أن يد القدر لم تمهل

---

(١) ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ١٩٦ ،

ابو المحاسن : النجوم الزاهره ، جـ ٦ ص ٧٠ :

ومن الجدير بالذكر ان السلطان العادل كان مريضا فى تلك الفترة ، وزاد همه وقلقه استيلاء الصليبيين على برج السلسلة ، فدق على قلبه ، وتوفى بعد قليل

(٢) ابو شامه : ذيل الروضتين ص ١٢٥ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

(٣) ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ص ١٢٧ .

صـــدر الدين بن حموية طويلا فتوفى فى ٢٤ جمادى الآخره من نفس العام (٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) بالموصل [١] أثناء تلك الجولة[٢] ، بعد أن بلغ من العمر ثلاثةوسبعين عاما [٣] .

---

(١) كان حاكم الموصل فى تلك الفترة هو بدر الدين لؤلؤ

(٢) دفن الشيخ صدر الدين بن حموية بالموصل .

ابن ايبك : الدر المطلوب ص ٢٠٨ .

(٣) ابو شامه : ذيل الروضتين ، ص١٢٥ ،

المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ص ٣٢ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ، حـ ١ ص٤٠٩ — ٤١٠ .

عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ

لعب القدر دوراً كبيراً فيما وصل إليه أولاد شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه من مكانة كبيرة فى الدولة الايوبية . فقد حدث أن أرضعت أمهم — إبنة القاضى شهاب الدين بن ابى عصرون — الملك الكامل محمد بن العادل الايوبى ، فصار الكامل محمد أخاً فى الرضاعة لأولاد صدر الدين بن حمويه شيخ الشيوخ[1] ولم ينس الملك الكامل هذه الصلة لأولاد شيخ الشيوخ ،لذلك عندما انفرد بحكم الديار المصرية بعدوفاة والده الملك العادل عام٦١٥هـ(١٢١٨م) « رقى أولاد صدر الدين شيخ الشيوخ بن حمويه الأربعة » وهم عماد الدين عمر وكمال الدين أحمد ومعين الدين حسن وفخر الدين يوسف[2] .

وقد لعب هؤلاء الأبناء الأربعة دوراً كبيراً فى تاريخ الدولة الأيوبية منذ زمن الكامل محمد وحتى نهاية الدولة الأيوبية ، فبالإضافة إلى ماأدوه من جهد واضح فى النشاط الدينى والعلمى كان لهم دوراً بارزاً فى مضمار الحرب والسياسة بالدولة الأيوبية .

أما عمادالدين عمر، فكان أكبر أخوته ولد عام عام ٥٨١هـ (١١٨٥م)[3].

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ ٥ ص ١٧٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ، حـ١ ق ١ ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣) العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، حـ ٥ ص ١٨١ .

ونال قسطاً وافراً من العلم،أهله للقيام بالتدريس مكان والده فى المدرسة الصلاحية بجوار الشافعى وبالمشهد الحسينى وبمشيخة الشيوخ بالديار المصرية[1] . ومما يذكر أن عماد الدين عمر كان ملازماً للملك الكامل يجالسه ويتحدث معه فى مختلف أمور العلم [2] ويبدو أن الذى ساعد على ذلك محبة الملك الكامل نفسه للعلم والعلماء فكان يجالسهم ويشاركهم المناقشات العلمية والفقهية[3] . ومن طريف مايذكر أن الناصر داود بن المعظم عيسى شقيق الملك الكامل كان يحضر بعض هذه المجالس العلمية ، وكان يخطئه عماد الدين عمر فى مختلف المناقشات العلمية[4] ، مما أوغر صدر الناصر داود على عماد الدين عمر وأدى إلى وجود الكراهية والعداء بين الرجلين .

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٤٤ ،
العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، حـ ٥ ص ١٨١ .

(٢) ونتيجة للصلات الطيبة بين الملك الكامل محمد وعماد الدين عمر فضل الكامل أن يقوم عماد الدين عمر بعقد قران الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى ابن صلاح الدين صاحب حلب على الخاتون فاطمه ابنة الملك الكامل عام٦٢٦هـ / ١٢٢٨ م .

انظر : المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حـ ٣ ص ١٦١ ،
ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٤٤ .

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ ٨ ص ٧٠٧ .

وعلى هذا النحو وصل عماد الدين عمر إلى مكانة بارزة فى مختلف أمور العلم والفقه ، لدرجة أن قال عنه القاضى والمؤرخ المعاصر جمال الدين بن واصل : « كان رحمه الله — أى عماد الدين عمر — تام العقل والفضل والكرم والبأس والرئاسة ، وكان مقصداً لمن يفد إليه ، . . وكان معدوم المثل فى وقته[1] » . وخير دليل على المكانة العالية التى وصل إليها عماد الدين عمر هو أن الملك الكامل جمع له بين رئاسة العلم والقلم عام ٦٣٢هـ (١٢٣٥م)[2] .

وإذا كان عماد الدين عمر قد وصل إلى مكانة كبيرة فى العلم والدراسة ، فانه كان فى نفس الوقت فارساً ماهراً ، تعلم فنون الفروسية والقتال ، فحاز على حد تعبير أبو الفدا[3] على « فضيلتى السيف والقلم » ، فكان يباشر التدريس ويتقدم الجيوش .

كذلك لم يكن عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ بعيداً عن شئون السياسة والحكم ، فكثيرا ما استعان به الملك الكامل فى حمل رسائله إلى مختلف حكام البلدان المجاوره ، مما يدل على الثقة التامة التى وضعها فيه الملك الكامل . من ذلك ماحدث عام ٦٢٣ هـ / ١٢٢٥ م عندما أرسله الكامل مبعوثاً من قبله إلى الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور المستنصر بالله (٦٢٣ — ٦٤٠ هـ / ١٢٢٦ — ١٢٤٢م)[4] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ٢٠٢ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣) المختصر ، جـ ٣ ص ١٦١ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٢ — ٣٣ .

أما الدور السياسى الخطير الذى لعبة عماد الدين عمر فكان عقب وفاة الملك الكامل محمد عام ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) خاصة فى مشاركته فى تقرير مصير الممالك الأيوبية ببلاد الشام والديار المصرية .

فيشير المؤرخون إلى أنه بعد وفاة السلطان الكامل محمد الأيوبى أجتمع الامراء وهم الأمير سيف الدين على بن قليج والأمير عز الدين أيبك ، والأمير ركن الدين الهيجاوى ، والأمير فخر الدين بن الشيخ(١) ، وأخوه الأمير عماد الدين عمر ، وأرباب الدولة بدمشق (٢) ، واتفقوا على تحليف الجند للملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل ليخلف أباه بقلعة الجبل وفى حكم الديار المصرية ، وأن يكون الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل الأيوبى نائباً عنه بدمشق(٣). غير أن الناصر داود بن المعظم عيسى كان يطمع فى أن يتولى حكم دمشق بدلا من الجواد(٤) . وهنا لعب عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ دوراً هاماً فى إقرار الجواد على حكم دمشق ، وإبعاد الناصر داود عنها ، وذلك لما كان بين كل من

---

(١) هو الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين وسيأتى شرح دوره فيما بعد .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ص ١٧١ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٦١ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٣٠٣ ، ٣٠٥ ،
الزبيدى : ترويح القلوب فى ذكر الملوك بنى أيوب ، ص ٧٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ١٧٣ .

عماد الدين عمر والناصر داود من عداء وكراهية [1] ، ويبدو أن كلمة عماد الدين عمر كانت نافذه على مختلف الأمراء ، مما جعلهم ينصاعون إلى أمره ، واتفقوا على إستبعاد الناصر داود عن نيابة دمشق ، واقرارها للملك الجواد ، [2] وإخراج الناصر داود من دمشق وإبعاده إلى الكرك حتى لا يسبب أية متاعب للملك الجواد كما مكث عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ بعض الوقت بدمشق ومعه قوة كبيرة من الجند لحفظ الأمور بها ، وفى نفس الوقت بذل الملك الجواد الأموال للجند والأمراء بدمشق لاجتذاب قلوبهم إليه [3].

وإذا كان عماد الدين عمر قد بذل كل هذا الجهد من أجل استقرار الأمور للملك الجواد بدمشق بحيث يكون نائبا عن الملك العادل الصغير ، فإن الأمور لم تلبث أن اضطربت بمصر وبلاد الشام بسبب نوايا الناصر داود وحقده على كل من عماد الدين عمر والملك العادل الصغير سلطان الديار المصرية (٦٣٥ — ٦٣٧هـ/ ١٢٣٧ — ١٢٣٩م) .

ذلك أن الناصر داود بعد أن فشل فى الوصول إلى حكم دمشق كما سبق أن أشرنا — فكر فى حكم الديار المصرية نفسها ، وقد انتهز الناصر داود فرصة

---

(١) انظر ماسبق ص٢٢ .

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ص٧٠٧ ،
ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص٣٢٨ ،
أبو المحاسن : النجوم ، جـ٦ص ٣٠٣—٣٠٥ ،
العماد الحنبلى . شذرات الذهب ، جـ٥ص ١٨١ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ق ١ ص ٢٦١ .

اضطراب الأمور بمصر وخروج بعض الأمراء عن طاعة العادل الصغير بسبب تقريبه الشباب ومنحهم الأموال والاقطاعات والاخذ بآرائهم واستبعاد الأمراء الكبار، كذلك لكثرة تحجبه عن الناس واشتغاله باللهو دون النظر فى مصالح الدوله. فانتهز الناصر داود هذه الفرصة وعزم على المسير إلى مصر ووطد العزم على أخذها عن طريق الحيلة . وبالفعل غادر الناصر داود الكرك متجها صوب مصر وحمل معه مجموعة كبيرة من التحف والهدايا والجوارى لإجتذاب العادل الصغير إليه، وعندما وصل إلى الديار المصرية أظهر للعادل الإخلاص وصار لايفارقه، ثم أخذ فى استمالة أمراء الديار المصرية إلى جانبه. وحتى يكتمل مخططه كان لابد من التخلص من عدوه الأول عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ الذى كان مقيما بدمشق حينئذ (١)، والذى كان نافذ الكلمة فى السلطنة الأيوبية. لذلك أوهم — أى الناصر داود — الملك العادل الصغير بأن الملك الجواد نائب دمشق قد استفحل أمره وأنه يطمع فى الإنقضاض على السلطنة والإطاحه بحكم العادل، وهمس إليه بأن الذى شجع الجواد على ذلك هو الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ الذى كان السبب فى تولية الجواد حكم دمشق (٢).

ويبدو أن العادل الصغير كان مستعدا لتصديق مثل هذه الاتهامات، خاصة بعد أن علا شأن الجواد واستولى على زمام الامور ببلاد الشام واستمال معظم الامراء إليه، وأنزل الهزيمة بجيش الناصر داود، مما دفع العادل الصغير إلى الخوف

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب حـ٥ ص١٧٣

(٢) ابو الفدا : المختصر، حـ٣ ص ١٦٣،
المقريزى : السلوك حـ ق٢ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

فعلا من نوايا الملك الجواد ، [1] كما بدأ يرتاب فى نوايا الأمير عماد الدين عمر .

وعلى هذا النحو نجح الناصر داود فى الايقاع بين الملك العادل الصغير وبين عماد الدين عمر الذى كان حينئذ مقيما بدمشق .

وعندما وصلت هذه الأخبار السيئة إلى مسامع عماد الدين عمر أثناء إقامته بدمشق ، خشى من اتساع الفجوة بينه وبين العادل الصغير ، فآثر الحضور إلى مصر واجتمع بالملك العادل ، وحتى يزيل عنه كل الشكوك ، التزم له — أى للعادل — باحضار الملك الجواد إلى طاعته بمصر ». ويشير المؤرخ ابن واصل[2] وكان معاصراً لتلك الأحداث إلى أن الملك العادل الصغير ، بعد أن تحقق من إستقلال ابن عمه الملك الجواد بحكم دمشق وعصيانه عليه ، أحضر أولاد شيخ الشيوخ الأربعة وهم فخر الدين ، وعماد الدين ، ومعين الدين ، وكمال الدين وقال لهم : أنتم ضيعتم على ملك دمشق ، فإن أبى الملك الكامل فتحها وتوفى وهو مالكها فسلمتم دمشق وخزائن أبى إلى الملك الجواد، فتغلب على دمشق وضيع الخزائن ، وماأعرف عود دمشق الى وإنتزاعها من يد الملك الجواد إلا منكم» . فتعهد عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ بارجاعها للملك العادل . ولم يلبث عماد الدين عمر أن تجهز للسفر إلى دمشق لإنتزاعها من يد الملك الجواد [3].

غير أن المهمة السياسية التى تعهد بإنجازها عماد الدين عمر لم تكن بالأمر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٥ ص١٩٢ — ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، حـ٥ ص ١٩٩

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب حـ٥ ص١٩٩ ،

Gottschalk : Awlad el shaykh, p. 766.

السهل ، فلم يكن من اليسير على الجواد أن يترك دمشق بهذا السهولة ويحضر إلى مصر ليقع أسيراً فى قبضه ابن عمه العادل الصغير ، لذلك رفض رفضا قاطعا ماعرضه عليه عماد الدين عمر من الذهاب إلى مصر والمثول بين يدى العادل الصغير، وهنا أعلن عماد الدين عمر عزل الجواد عن نيابة دمشق (١)

ولما لم يكن لدى الجواد القوة الكافية للدخول فى صراع ضد العادل الصغير وعماد الدين عمر ، وهو فى نفس الوقت لايريد أن يفقد ما وصل إليه من ملك وما أحرزه من جاه ، لذلك آثر أن يعقد إتفاقا مع الشقيق الأكبر للعادل الصغير وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى كان يحقد على أخيه الصغير لتوليه دونه حكم مصر ، وتم الإتفاق بين الجواد والملك الصالح نجم الدين على أن يتنازل الأول للثانى عن دمشق على أن يأخذ الجواد عوضا عنها سنجار (٢) والرقة (٣) وعانه (٤) .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، حـ٣ ص ١٦٣ ،
المقريزى: السلوك ، حـ١ق ٢ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٢) سنجار مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة .
ياقوت معجم البلدان حـ٣ ص ٢٦٢

(٣) الرقه مدينة مشهورة على الفرات .
ياقوت ، معجم البلدان حـ٣ ص ٥٩

(٤) عانه بلد مشهور بين الرقة وهيث يعد فى أعمال الجزيرة
ياقوت : معجم البلدان حـ٤ ص٧٢

ويبدو أن الجواد خشي من وجود عماد الدين عمر بدمشق وتدخله لإفساد الإتفاق المبرم بينه وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب [1] لذلك فكر فى التخلص منه ، ورتب جماعة من الإسماعيلية للفتك به ، وبالفعل فى السادس والعشرين من جمادى الأولى عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م تم اغتيال عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية ، وأشيع أن الاسماعيلية أخطأوا فى قتله وإنما كانوا يريدون قتل الملك الجواد نفسه فإنه كان كثير الشبه به [2] .

ويشير سبط بن الجوزى [3] ــ وهو مؤرخ معاصر لهذه الأحداث وشاهد عيانها ــ أن الجواد بعد أن قتل عماد الدين عمر أخذ أمواله وخيوله ومماليكه ، فامتنع مماليك عماد الدين عمر عن خدمة الجواد ، وقالوا : أنت تدعى أنك ما قتلته ، وهو له أخوه وورثه فبأى طريق تأخذ ماله ؟ فسجنهم الجواد .

وفى اليوم التالى لمقتل عماد الدين عمر ــ ٢٧ جمادى الاولى عام ٦٣٦هـ ــ أقيمت جنازة عظيمة له ، وصلى عليه بجامع دمشق ، وحضر جنازته المؤرخ المعاصر أبو شامه [4] ، وأشار ابن واصل [5] إلى أنه حضر جنازته معظم الناس والفقهاء

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ص٢٠٠

(٢) أبو الفدا :المختصر ، جـ٣ص١٦٣ ؛

المقريزى : السلوك جـ١ ق٢ ص٢٧٦ــ٢٧٧ ، الخطط ، جـ ٢ ص٣٢ــ٣٣،

العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ٥ ص١٨١

(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ص ٧٢١ ــ ٧٢٣

(٤) ذيل الروضتين ، ص١٦٧ ــ ١٦٨

دفن عماد الدين عمر بجبل قايسون بدمشق .

(٥) مفرج الكروب ، جـ٥ص٢٠٢

والصوفية وأهل الدين وغيرهم . ويقرر سبط بن الجوزى (1) أن عماد الدين عمر قتل مظلوماً .

وعلى هذا النحو انتهت حياة الشيخ العالم المحارب السياسى عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية .

---

(1) مرآة الزمان ، ج٨ص٧٢١–٧٢٣ .

كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ

تولى كمال الدين أحمد بن صدر الدين بن حمويه مشيخة الصوفيه بالديار المصريه — سعيد السعداء — خلفاً لوالده الشيخ صدر الدين بن حمويه ، وكان عالماً ، تولى التدريس بالمدرسه الناصريه التى تقع بجوار الجامع العتيق بمصر ، وكذلك التدريس بالشافعى بالقرافه ، وكانت له جهود كبيره فى الحياه العلميه والدينيه فى مصر فى العصر الأيوبى (١) .

غير أن أهمية هذا الرجل العالم الصوفى تعود إلى اشتغاله بالحرب والسياسه إلى جانب نبوغه العلمى وزهده وورعه ، حيث قام كمال الدين أحمد هذا بخدمة كل من السلطان الكامل محمد ثم ابنه الصالح نجم الدين أيوب ، وقدم لهما كل مايستطيع تقديمه من جهد فى مجال الحرب والسياسه .

من ذلك إستعانة الملك الكامل به أثناء صراعه ضد أخوته وأبناء عمومته ببلاد الشام ، عندما أرسله عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م رسولا من قبله إلى الملك المعظم عيسى ، بعد أن إحتدم النزاع بين المعظم عيسى من ناحيه وأخيه الملك الكامل محمد من ناحيه أخرى ، واستعان المعظم عيسى فى هذا الصراع بقوة جلال الدين الخوارزمى ضد أخيه الكامل ، مما أفزع الكامل محمد . ويبدو أن الكامل محمد

---

(١) المقريزى : الخطط ، حـ ٢ ص ٣٢ — ٣٣ .

كان يريد أن يثنى عزم المعظم عيسى عن التحالف مع الخوارزميه ، وبذل فى سبيل ذلك عدة محاولات ، كان من بينها محاولات دبلوماسيه قام بها سفراء الملك الكامل ومن بينهم كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ . وقد كلف الكامل محمد السفير كمال الدين أحمد بأن يتوجه بعد ذلك إلى الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، الذى كان حليف الملك الكامل محمد فى تلك الفتره ، ليخبره بنتائج سفارته إلى الملك المعظم عيسى[1] . وإذا كانت المصادر قد صمتت ولم تشر إلى محتويات الرسالة التى كان يحملها السفير كمال الدين أحمد أو طبيعة تلك السفاره ، فإنه يبدو أن المعظم عيسى قد أصم أذنيه عن سماع أى نداء لإعادة العلاقات الوديه مع أخوته وأبناء عمومته ، وفضل السير فى طريق عدائه لهم وصداقته وتحالفه مع جلال الدين الخوارزى . ويدلنا على هذا ما اتخذه الكامل بعد ذلك من سبل « ليشغل سر أخيه المعظم » خاصة عندما أرسل يستدعى الامبراطور فردريك الثانى امبراطور الامبراطوريه الرومانيه المقدسه ليتسلم بيت المقدس[2] .

ولم تقتصر أهمية الشيخ كمال الدين أحمد عند حد إشتغاله سفيرا للملك الكامل محمد ، وإنما تقلد عدة وظائف سياسية ، منها توليه وظيفة نيابة حران والجزيره

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٢٣ .

(٢) أبن العميد : أخبار الأيوبين ، ص ١٢٦ ،

العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ (مخطوط) ،

المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ١ ص ٢٢٢ .

وأنظر بعده

فى عام ٦٢٧ ﻫ (١٢٢٩ م) [١] ، ويبدو أن الكامل محمد أختار الشيخ كمال الدين أحمد لهذا المنصب بالذات لأن هذه البلاد كانت تحت حكم الأشرف موسى وقد أخذها الكامل محمد منه بمقتضى اتفاقية تل العجول أوائل عام ٦٢٦ ﻫ (نوفمبر ١٢٢٨م) [٢] ،وكان يتطلب حكمها رجلا صالحا قادراً على ضبط أمورها وجذب قلوب رعيتها إلى الملك الكامل ، ولم يكن لدى الملك الكامل أفضل من الشيخ كمال الدين أحمد شيخ الشيوخ ، لذلك لم يتردد فى أن يعهد بحكمها إليه .

ومن المهام السياسيه التى تولاها الشيخ كمال الدين أحمد أيضا زمن الكامل محمد منصب الوزاره بالديار المصرية ، وكان ذلك بعد عودته من حران بعد استتبت الأمور للكامل بها حيث عهد إليه الكامل فى آخر عام ٦٢٧ ﻫ / ١٢٢٨ م بأمر الوزاره ، التى قام بها كمال الدين خير قيام [٣] .

---

(١) المقريزى :السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٣٨ ، الخطط ، ج ٢ ص٣٢-٣٣

(٢) سبط بن الجوزى :مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٦٥٧ ،

أبن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٣١ .

(٣) أبن العميد :اخبار الأيوبيين ، ص ١٨٩

المقريزى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٣٩ .

ويبدو أن الصلة بين الكامل محمد والشيخ كمال الدين أحمد كانت قوية جداً لدرجة أن الكامل وكله عنه عام ٦٢٩ ﻫ (١٢٣١ م) فى عقد قران أبنته « عاشوراء خاتون » على الملك الناصر داود . أنظر : أبو المحاسن . النجوم ج ٥ ص ١٥ .

ومن الطريف أن الشيخ كمال الدين أحمد شيخ شيوخ الديار المصرية الرجل العالم الزاهد كان فارساً ماهرا ، تعلم فنون الفروسية والقتال وأجادها اجادة تامة ، لدرجة أنه حاز على حد تعبير المؤرخ أبي الفدا « فضيلة السيف والقلم »(١) .

فقد أعتمد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ / ١٢٢٩ — ١٢٤٩ م) اعتمادا كبيرا على شيخ الشيوخ كمال الدين أحمد فى كثير من معاركه الحربية ، (٢) ففى عام ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) خرج كل من الناصر داود صاحب الكرك والصالح اسماعيل صاحب دمشق والمنصور ابراهيم صاحب حمص عن طاعة الملك الصالح نجم الدين أيوب وعزموا على محاربته ، فلم يكن من الملك الصالح إلا أن جهز جيشاً كبيرا عهد بقيادته الى الشيخ كمال الدين أحمد لتأديب الناصر داود ومن معه .

واتجه الشيخ كمال الدين بجيشه صوب بلاد الشام حيث تقابل مع جيش الناصر داود وحلفائه بجبل القدس ، غير أن الهزيمة كانت من نصيب الشيخ كمال الدين الذى وقع أسيرا فى يد الناصر داود ، بيد أن الناصر داود لم يلبث أن أطلق سراحه بعد فترة وجيزه ، فعاد الشيخ كمال الدين أحمد الى القاهرة(٣) .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ١٦١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٧٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ص ٣٠١ ،
ابن ايبك : الدر المطلب ، ص ٣٤٧ ،
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٣٠٩ .

ومن الجدير بالذكر أن هزيمة الشيخ كمال الدين وأسره عام ٦٣٨ ﻫ ، لاتعنى نهاية لدوره الحربى فى الدولة الأيوبية ، وإنما أستمر بعد ذلك يؤدى دوره كاملا فى مضمار الحرب والقتال ، من ذلك قيادته للجيش المصرى المقيم بغزه عامى ٦٣٩، ٦٤٠ ﻫ / ١٢٤١ ، ١٢٤٢ م للضرب على أيدى الخارجين عن طاعة الملك الصالح ولصد أى هجوم يحاول أن يقـــوم به أمراء بلاد الشام الخارجين عن طاعة الملك الصالح .

وأستمر الشيخ كمال الدين أحمد مقيما بغزه حتى وفاته فى الثالث عشر من شهر صفر عام ٦٤٠ ﻫ (١٢٤٢ م) على أثر تناوله طعام مسموم[1] .

وعلى هذا النحو تنتهى حياة ثانى أولاد شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه (الشيخ كمال الدين أحمد) الذى جمع بين العلم والحرب والسياسة ، وأدى دورا بارزا فى تاريخ الدولة الأيوبية .

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ٨ ص ٧٣٩ ،
ابو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٧٢ ،
المقريزى : الخطط ، حـ٢ ص ٣٣ ،
أبو المحاسن : النجوم ، حـ٦ ص ٣٤٥ ،
العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، حـ٥ ص ٢٠٧ .

معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ

يعتبر الشيخ معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية مثلا ظاهراً لعالم فقيه متصوف جمع فى يديه بين البراعه فى العلم والأدب والمهارة فى مختلف فنون الحرب والقتال والحنكة السياسية والذكاء والدبلوماسية وبين الزهد والخشوع والإيمان .

وقد ساعدت كل هذه الصفات التى تمتع بها معين الدين حسن على أن يتقلد عدة وظائف مختلفة دينية كانت أو عليه أو عسكريه أو سياسية .

وبحكم مولده تولى مشيخة الشيوخ بالديار المصرية (سعيد السعداء) التى صارت حكراً على أولاد صدر الدين بن حمويه ، وفى نفس الوقت شغل عدة وظائف عليه أخرى ، فقام بالتدريس مثله مثل بقية أخوته ، بالمشهد الحسينى ، لكنه زاد عليهم أنه بنى بهذا المشهد إيواناً للتدريس (١) . وبالاضافة إلى كل ذلك إستعان به الملك الكامل محمد ومن بعده الصالح أيوب ، فى تصريف كثير من شئون الدوله السياسية والحربية (٢) .

ومن المهام السياسية التى أداها الشيخ معين الدين حسن ، ما حدث عام ٦٢٣ هـ

---

(١) المقريزى : الخطط ، حـ٢ص٢٣ ،

Gotstchalk : Awlad ol shaykh, p 766

(٢) أبو المحاسن : النجوم حـ٦ ص٥٥ حاشيه رقم ١

(١٢٢٦م) عندما أرسله الملك الكامل محمد سفيرا من قبله إلى مقر الخلافة العباسية ببغداد ، معزياً فى وفاة الخليفة أبى نصر محمد الظاهر بأمر الله العباسى (٦٢٢ — ٦٢٣هـ ١٢٢٥ — ١٢٢٦م) ومهنئا بخلافة ابنه أبى جعفر المنصور المستنصر بالله (٦٢٣ — ٦٤٠هـ / ١٢٢٦ — ١٢٤٢م) [١] ، حيث وقف بين يدى الوزير مؤيد الدين أبى الحسن محمد بن محمد القمى [٢] ، وألقى تلك الكلمة البليغة : « عبد الدولة المقدسة المستنصرية يقبل القباب ، التى يستشفى بتقبيل ثراها ، ويستكفى بتمسكه من عبوديتها بأوثق عراها ، ويوالى شكر الله تعالى على إماطه ليل العزاء ، الذى عم مصابه بصبح الهناء الذى تم نصابه ، حتى تزحزح عن شمس الهدى شفق الأشفاق فجعل كلمتها العليا ، وكلمة معاديها السفلى ، وزادها شرفا فى الآخرة والأولى » [٣]

ولم تقتصر المهام السياسية والدبلوماسية التى أداها الشيخ معين الدين زمن

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) قمى الأصل والمولد ، وينتسب إلى بلدة قم وهى بين أصبهان وساره ، بغدادى المنشأ والوفاه ، يتصل بنسبة إلى المقداد بن الأسود الكندى ، كان بصيراً بأمور الملك ، خبيرا بأدوات الرياسة ، تولى الوزارة للخليفة العباسى الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ثم لولده الظاهر بأمر الله أبو نصر ، ثم للمستنصر الذى قبض عليه وسجنه ، فمرض ومات بعد ذلك عام ٦٢٩هـ (١٢٣١)

انظر : ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٣٩ — ٢٤١ ،

ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ص ٣٩٧ — ٣٩٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ١ ص ٢٢٠ ،

الخطط جـ٢ ص ٣٢ — ٣٣ .

الكامل عند هذا الحد ، وإنما حدث بعد وفاة الصاحب صفى الدين بن شكر (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) [١] وزير الكامل أن عهد الكامل إلى الشيخ معين الدين بتدبير السلطنة الأيوبية ولقبه نائب الوزارة [٢] كما أن الكامل بعد أن استولى على آمد [٣] ، أناب بها الشيخ معين الدين أحمد [٤] .

بيد أن الأهمية السياسية والحربية لمعين الدين أحمد تتجلى بوضوح زمن السلطان

---

(١) هو الوزير الكبير صفى الدين عبد الله بن على بن شكر واصله من الدميره ، وهى قريه بالوجه البحرى من أعمال مصر . وكان صفى الدين المذكور وزيرا مهيبا عالما فاضلا له معرفة بقوانين الوزاره وكانت عنايته مصروفه إلى العلماء والفقهاء والأدباء .

انظر : أبو المحاسن: النجوم ، ﺣ٦ص١٥١—١٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ .

(٢) ابن العميد : أخبار الايوبيين ص ١٤٤ ،

النابلسى : لمع القوانين المضيه ، ص٣٦ ،

المقريزى : السلوك ، ﺣ١ق١ص٢٥٩ — ٢٦٠

والمعروف أن الكامل فى بداية حكمه استوزر صفى الدين بن شكر وزير ابيه العادل ، وبعد وفاته لم يول أحد الوزاره ، وانما استعان ببعض الفضلاء فى تدبير شئون الحكم .

انظر : أبو الفدا : المختصر ، ص١٦١

(٣) آمد احدى بلاد ديار بكر

ياقوت : البلدان ، ﺣ٢ ص ٤٩٤ .

(٤) ابن العميد : أخبار الايوبيين ، ص١٤٠

الصالح نجم الدين أيوب الذى آل إليه حكم الديار المصرية عام ٦٣٧هـ (١٢٣٩ م). ذلك أنه عقب انتظام الملك الصالح أيوب بمصر، استوزر معين الدين بن شيخ الشيوخ، وسلم اليه أمور المملكه وذلك فى يوم الخميس الحادى عشر من ذى القعدة عام ٦٣٧ هـ،(١) فقام معين الدين بوزاره الملك الصالح خير قيام (٢) ومن الجدير بالذكر أنه منذ عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، وحتى وفاة معين الدين أحمد بن الشيخ، لعب معين الدين دوراً هاما وخطيراً فى تاريخ السلطنة الأيوبية فى كل من مصر والشام (٣).

ولم يقتصر الدور الذى لعبه معين الدين فى الدوله الأيوبية على النواحى السياسية والادارية والنظر فى مصالح البلاد والعباد (٤)، وإنما تعداه إلى المشاركة فى مضمار الحرب والقتال، خاصة ضد الصالح اسماعيل صاحب دمشق (٥).

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ص٢٩٩،

ابن العميد : اخبار الأيوبيين، ص١٥١ ،

ابن ايبك : الدر المطلوب، ص٣٤٣

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥ص٢٧٧

(٣) سكن الصاحب معين الدين أحمد داخل قاعة من قاعات القصر الكبير واتخذها سكنا بعده أخوه فخر الدين، لذا عرفت باسم قصر أولاد الشيخ.

انظر : المقريزى : الخطط جـ١ ص ٤٠٣.

(٤) المقريزى : السلوك، جـ١ ق ٢ ص٢٩٩،

السيوطى : حسن المحاضره، جـ٢ص٢١٦.

(٥) العماد الحنبلى : شذرات الذهب، جـ٥ ص٢١٨

ففى عام ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) رسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى وزيره معين الدين بن شيخ الشيوخ أن يخرج على رأس الجيش ليستولى على دمشق من الصالح اسماعيل ويكون نائبه فيها ، وفوض إليه حكمها ، وأقامة مقام نفسه ، ، كما أمر الصالح نجم الدين أيوب الخوارزميه بأن يعملوا تحت قيادة معين الدين أحمد(١) .

ومن يتتبع وصف هيئة معين الدين أحمد بن الشيخ أثناء خروجه على رأس الجيش المصرى للإستيلاء على دمشق يدرك جيداً مدى ماوصل إليه معين الدين من مكانه وهيبه كبيره فى الدولة الايوبية (٢) . فيشير المؤرخون إلى أن الصاحب معين الدين خرج على رأس العساكر من القاهره ومعه الدهليز السلطانى والخزائن(٣) وأقامه السلطان مقام نفسه ، وأذن له فى أن يجلس على رأس السماط ، ويركب كما هى عادة الملوك ، وأن يقف الطواشى(٤) شهاب الدين رشيد استادار(٥) السلطان

---

(١) ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ٣٥٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٣٢ — ٣٣ .

(٣) يلاحظ انه لايخرج بهذه الهيئة إلا الملوك والسلاطين .

(٤) الطواشى وجمعه طواشيه هم الخصيان الذين استخدموا فى الطباق الملوكية وفى الحريم السلطانى :

انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٣٣ .

(٥) الاستادار : وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها ،وله مطلق التصرف فى احضار مايحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكساوى ومايجرى مجرى ذلك من المماليك وغيرهم .

انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٨٩ ،

القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ص ٢٠ .

فى خدمته على السماط ، ويقف أمير جاندار[1] والحجاب[2] بين يديه ، كعادتهم فى خدمة السلطان[3] .

وما أن وصل معين الدين بن الشيخ إلى غزه ،حتى أنضم إليه الجيش الخوارزمى واتجه الجميع إلى بيان[4] ، ومنها اتجهوا صـــوب دمشق أواخر عام ٦٤٢ هـ

---

(١) أمير جاندار : هو الشخص الذى يستأذن لدخول الأمراء للخدمة أمام السلطان ، ويدخل امامهم إلى الديوان .

القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٢٠ ،

المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص ١٣٣ حاشية رقم ١ .

(٢) الحجاب جمع ومفرده حاجب ، ويقوم صاحب هذه الوظيفة بالانصاف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن وجد ، واليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجندوماناسب ذلك .

المقريزى: السلوك ، جـ١ ق ١ ص ١٢٣ حاشية ٣

القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ص ١٩ ،

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٥ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ٣٤١ ،

المقريزى : السلوك جـ١ ق٢ ص٣١٨ــ٣١٩ .

(٤) بيان مدينة بالأردن بالغور الشامى، ويقال هى لسان الأرض ، وهى=

(١٢٤٤م)[1] وكان قد تحصن بها كل من الصالح اسماعيل صاحبها ، والمنصور ابراهيم صاحب حمص[2] .

وبوصول جيش معين الدين أحمد بن شيخ الشيوخ إلى دمشق بدأ الخوارزمية فى التضييق على أهل البلد وقطع كل الطرق والامدادات عنها ، فاشتد ذلك على أهل دمشق وسادهم الخوف وازدادت حالتهم سوءا[3] .

ويبدو أن الصالح اسماعيل صاحب دمشق أراد أن يثنى عزم معين الدين عن مواصلة القتال والاستيلاء على دمشق وذلك بتذكيره بأصله الصوفى وأنه لا يليق له أن يتخلى عن وضعه كرجل دين متصوف ، ويتحول إلى رجل محارب يمتلىء قلبه بالقسوه يقاتل الأمراء والملوك ، فيشير المؤرخ سبط بن الجوزى[4] وهو معاصر لتلك الأحداث ، أنه فى يوم الاثنين الثامن من المحرم — عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م —

= بين حوران وفلسطين ، وتوصف بكثرة النخل .

ياقوت : معجم البلدان ، حـ١ ص ٥٢٧

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ٨ ص ٧٤٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، حـ٣ ص ١٧٢ — ١٧٣ ،

المقريزى : السلوك ، حـ١ ق ٢ ص ٣١٨ — ٣١٩ .

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ٨ ص ٧٥٢ ،

أبو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٧٩

(٤) مرآة الزمان ، حـ٨ ص ٨٥٢

وانظر أيضا : ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ٣٥٤ ،

المقريزى : السلوك ، حـ١ ق ٢ ص ٣١٨ — ٣١٩ .

بعث الصالح اسماعيل إلى معين الدين بن الشيخ سجاده وابريقا وعكازا ، وقال إشتغالك بهذا أولى من إشتغالك بقتال الملوك » .

غير أن هذه الحرب النفسيةالتى أرادها الصالح اسماعيل لم تؤثر فى نفسيه معين الدين بن الشيخ ، الذى اتصف كرجل دين بصلابة الرأى بالاضافة إلى إيمانه المطلق بالله ، فأرسل إلى الصالح اسماعيل رداً على رسالته السابقه وبصحبتها « جنك[1] وزمر وغلاله حرير أحمر وأخضر ، وقال له : السجاده وما معها تصلح لى ،وأنت أولى بالغلاله والجنك والزمر من الملك »[2] .

ولم يلبث أن شدد معين الدين بن الشيخ الحصار على دمشق ، وأخيراً زحف ومعه الخوارزميه صوب دمشق ورموها بالنيران[3] . ولم يستطع الصالح اسماعيل الصمود فى وجه جيوش معين الدين بن الشيخ ومن معه من الخوارزميه ، فكاتب معين الدين فى أمر الصلح وتسليم دمشق له وحقن الدماء . ووافق معين الدين على عقد الصلح ، « وفى يوم الخميس العاشر من جمادى الآخره عام ٦٤٣ هـ — ١٢٤٥م تسلم معين الدين بن الشيخ دمشق وأعمالها وحصونها وبلادها ، ودبرها تدبيراً جيداً »[4] .

---

(١) الجنك من أدوات الطرب والغناء .

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ ٨ ص ٧٥٢ ،
ابن ايبك : الدر المطلوب ص ٣٥٤ .

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ ٨ ص ٧٥٢ .

(٤) ابن العميد . أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٥ ، ==

ويعلق المؤرخ أبو شامه(١) — وهو معاصر لهذه الأحداث وشاهد عيانها — على حسن سياسة وتدبير معين الدين لدمشق بقوله : « انه باستيلاء الصاحب معين الدين شيخ الشيوخ نائب صاحب مصر على دمشق ورحيل سلطانها الصالح اسماعيل عنها زال الخوف عن البلاد والظلم والمصادرات والوجل » .

وعلى هذا النحو استطاع معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، ذلك الرجل العالم المتصوف الزاهد المتعبد أن يقهر أحد ملوك البيت الأيوبى بالشام ويستولى على دمشق ويعيدها إلى مخدومه السلطان الصالح نجم الدين أيوب .

وأستمر معين الدين يحكم دمشق نيابة عن الصالح نجم الدين أيوب ، منذ استيلائه عليها فى جمادى الآخره عام ٦٤٣ هـ ، حتى ليلة الأحد الثانى والعشرين من شهر رمضان عام ٦٤٣ هـ (١٢٤٦ م) حيث توفى بدمشق ، ودفن بها بجوار أخيه عماد الدين عمر بجبل قايسون(٢) ، بعد أن شارك مشاركة فعاله فى مضمار

= ابو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ٧٤ ،
ابن واصل مفرج الكروب جـ٥ ص٣٤٨ ،
المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٢ — ٣٣ ،
العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ٥ ص١٨١

(١) ذيل الروضتين ، ص ١٧٩ ،

(٢) ابو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٧٧ ،
ابن العميد : اخبار الايوبيين ، ص ١٠٦ ، =

الحرب والسياسه فى تاريخ مصر والشام فى العصر الأيوبى ، بالإضافه إلى دوره المعروف فى الحياه العلميه والدينية فى تلك الفترة .

= ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٥ ص ٣٤٩ ،
المقريزى : الخطط ، حـ ٢ ص ٢٣ ،
أبو المحاسن : النجوم ، حـ٦ ص٣٥٢ — ٣٥٣

فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ

حياته :

أما الأمير فخر الدين يوسف فهو الابن الأصغر لشيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه ، ووالدته ابنة القاضي شهاب الدين بن أبي عصرون . ولد بدمشق بعد الثمانين وخمسمائة[1] ، وتربى وتعلم بها ، ثم تنقل بين بعض المدن الشاميه لتلقى العلم، وسمع الحديث من أبي الحسن الطبرى ومحمد بن يوسف الغزنوى وغيرهما[2] . ثم وفد مع والده إلى مصر ، وعاش بها مقربا من أبناء البيت الايوبى ، مثله مثل بقية أخوته .

ويبدو أن فخر الدين يوسف اختلف عن بقية إخوته فى أنه لم يتقيد بالمشيخه — دار الصوفيه — والعلوم الدينية ، وإنما توسع فى بقية العلوم الأخرى الفلسفية والحكمية « وشارك فى كل فن »[3] ، والتقى بفكره مع الملك الكامل محمد ابن العادل الايوبى ، حيث شغف كلاهما بدراسة العلوم .

---

(١) ذكر السبكى أن فخر الدين يوسف ولد بدمشق عام ٥٣٢ هـ ، وهذا خطأ واضح فمن الثابت أن والد فخر الدين ولد بعد عام ٥٤٠ هـ فكيف يكون فخر الدين من مواليد عام ٥٣٢ هـ !! (طبقات الشافعية ، جـ٥ ص ١٥٢-١٥٣).

(٢) العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ٥ ص ٢٣٨ — ٢٢٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ص ١٦٩ .

وقد شارك فخر الدين يوسف مثله مثل بقية إخوته فى الحركة العلمية فى العصر الأيوبى ، فتولى وظيفة التدريس بالمدرسة الناصرية بجوار قبر الشافعى ، وكذلك التدريس بالمدرسة المجاورة للمشهد الحسينى بالقاهرة[1] .

غير أن المهم لدينا هو خروج فخر الدين عن نطاق التدريس والعلوم الدينية والحياة العلمية ، إلى المشاركة فى مضمار الحكم والسياسة[2] . ويشير المؤرخون[3] إلى أن فخر الدين « خلع العمامه[4] ، ولبس الشربوش[5] والقباء[6] ، ونادم السلطان الكامل » .

ومعنى هذا أن فخر الدين خرج عن نطاق العلماء والفقهاء ليس فقط فى أعماله

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ص ١٧٠ .

(٢) Gottschalk : Awlad el Shaykh, p. 766.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ١٦٩ .

المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص ٦١ .

(٤) كانت العمائم زيا عرف به القضاه والعلماء ومشايخ الصوفية وتكون من الشاشات الكبار .

انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٥) الشربوش قلنسوه طويله أعجمية ، وتلبس بدل العمامه ، وكانت شاره للأمراء ، فلا يلبسها رجال العلم .

المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٥١ ، حاشية رقم ١ .

(٦) القباء الاسلامى والقباء التترى زى من أزياء أرباب السيوف ،

القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٣٩ — ٤٠ .

وإنما كذلك فى مظهره الخارجى وزيه ، فلم يعد يرتدى زى العلماء والفقهاء وإنما ارتدى زى الأمراء . وإذا كان إخوته الثلاثه قد شاركوا فى مضمار الحرب والسياسة بالاضافة إلى استمرارهم فى تأدية وظيفتهم كعلماء وفقهاء ، كما أنهم لم يتخلوا عن زى العلماء ، فإن فخر الدين يوسف إختلف عنهم كثيرا عندما ترك نهائيا لبس العمامه وتزيا بزى الأمراء ولبس الشربوش والقباء .

واستمر الأمير فخر الدين يوسف ملاصقا للسلطان الكامل طيلة حياته ، يجالسه ويأمره ، ويستعين به الكامل فى تصريف شئون دولته الداخلية[1] ، وعونا له فى إقرار سياسته الخارجية ، خاصة ذلك الدور الخطير الذى لعبه فى توطيد علاقة الكامل سلطان الديار المصرية بأكبر قوة فى الغرب الأوربى وهى قوة الامبراطور فردريك الثانى إمبراطور الامبرطورية الرومانيه المقدسة .

ويبدو أن شهرة فخر الدين ومهارته وبراعته فى فنون الحرب والسياسه بالإضافه إلى غزارة علمه ، جعلت فردريك الثانى الذى لقبه المؤرخون « بأعجوبة الدنيا »[2] ، يمنحه مرتبة « الفروسية » ، وهى رتبة رفيعه لا تمنح إلا لجدير بها .

---

(١) النابلسى : لمع القوانين المضية ، ص ٤

(٢) Kantorwicz ; Fredrick the Second, p 85.

والمعروف أن فردريك الثانى اهتم بالعلوم كالحكمة والمنطق والطب والهندسة والحساب والرياضيات ، وشغف بالعلوم الاسلامية .

أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ﺟ ٤ ص ٢٣٤ ،

ابن الوردى : تاريخه ﺟ ٢ ص ١٥٠ ،

العينى : عقد الجمان : حوادث عام ٦٢٥ ﻫ (مخطوط) .

بها[1] .

وعلى هذا النحو نال فخر الدين يوسف مرتبة عالية فى سلطنة الكامل محمد ، وشغل عدة مناصب كبيرة ، ووصلت أخباره إلى بغداد حيث يقيم الخليفة العباسى الذى أخذ يتتبع أخباره .

ومن الشواهد الداله على تتبع الخليفة العباسى لأخبار وأحوال فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، تلك الحادثة التى ذكرها المؤرخون وهى أن فخر الدين عندما كان استادارا للكامل أقام فوق سطح أحد المساجد بمصر طبلخاناه[2] ، غير أنه عندما تحقق قاضى مصر والوجه القبلى عز الدين بن عبد السلام من ذلك غضب كثيرا لاتخاذ بيت الله مكانا للطبلخاناه ، وأصدر حكما بهدم ذلك البناء كما افتى بإسقاط فخر الدين وعزلة عن وظيفته وإبعاده عن شئون الحكم والسياسه . غير أن الكامل لم يأخذ بفتوى قاضى مصر ابن عبد السلام واستمر فخر الدين فى وظيفته . ولم تمض فتره قصيره على هذه الحادثة إلا وجهز السلطان الكامل محمد رسولا من عنده إلى الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ، ووقف بين يدى الخليفة ، وأدى الرسالة اليه

---

(١) حوليات جوانفيل ، ص ١٠٨ .

(٢) الطبلخاناه لفظ مركب من كلمة طبل وهى بالعربيه ، وكلمة خاناه وهى فارسية ومعناه مكان الفرقة الموسيقيه . وكانت العادة أن تدق نوبة فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون فى صحبة السلطان فى الأسفار والحروب .

أنظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٨ ، ١٣ ،

المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٤٦ حاشية رقم ٢ .

سأله الخليفة : هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال الرسول : لا . ولكن حملنيها من السلطان فخر الدين بن شيخ الشيوخ استاداره . فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لانقبل روايته[1] .

وبوفاة الملك الكامل محمد (ت ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م) اضطربت أمور السلطنة الأيوبية فى مصر والشام ، وإذا كان الكامل قد أقر على حكم مصر إبنه العادل الصغير ، فإن بلاد الشام وقعت فى فوضى شامله وتصارع أمراء البيت الأيوبي حول إمتلاك الشام . وأثناء هذا الصراع تفجر الحقد على فخر الدين يوسف الذى كان مسموع الكلمه لدى الملك العادل الصغير . وانتهى هذا الحقد بإحداث الفتنه بين العادل الصغير وبين فخر الدين يوسف تلك الفتنة التى انتهت بسجن فخر الدين[2] .

وظل فخر الدين مسجونا حتى سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى أفرج عن الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ من سجن العادل[3] ، فالتف حوله أهالى البلاد وترددوا على داره[4] ، وذلك « لما اتصف به فخر الدين من كرم

---

(١) السيوطى : حسن المحاضره ، جـ ٢ ص ١٦٢ .
وانظر أيضاً :
ابن واصل : مفرج الكروب حـ٥ ص٣٣ ،
النويرى : نهايه الأرب حـ٢٧ ورقة ٧٧ (مخطوط) .
(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع فيما بعد .
(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٣٢٠ .
(٤) المقريزى : السلوك ، حـ١ ق٢ ص ٣٠٩ .

وحسن سيره »[1] . بيد أن هذا الوضع الذى أصبح فيه الأمير فخر الدين لم يعجب الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وخشى ازدياد نفوذ الأمير فخر الدين[2] ، خاصة بعد أن اعتاد فخر الدين الركوب فى هيئة عظيمة أثارت شكوك الصالح أيوب ، وأخيراً أصدر الصالح نجم الدين أيوب أمره عام ٦٣٨ ه (١٢٤٠ م) بأن يلازم فخر الدين يوسف داره[3] . وعلى هذا النحو تحددت إقامة فخر الدين يوسف ، ولم يشارك فى أمور السياسة والحكم.

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٥ ص٢٧٧ ،
السبكى : طبقات الشافعية ، حـ٥ ص ١٥٢ ،
أبو المحاسن : النجوم ، حـ٦ص ٣٢٠ .

(٢) يبدو أنه لم يكن هناك وفاق منذ البداية بين الصالح نجم الدين أيوب وبين الأمير فخر الدين يوسف ، ويدلنا على هذا مارواه ابن العميد من أنه بعد وفاة المعظم عيسى صاحب دمشق عام ٦٢٤ ه / ١٢٢٧م ، وحدوث الشقاق بين الكامل محمد وبين الناصر داود بن المعظم عيسى ، عزم الكامل محمد على الخروج من مصر والاتجاه صوب دمشق للاستيلاء عليها ، وأناب على حكم مصر أثناء غيبته ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف لتحصيل الأموال وتدبير السلطنة ، غير أن فخر الدين خشى على نفسه من الصالح أيوب ، وفضل المضى إلى الشام ليكون فى خدمة الملك الكامل.
انظر : ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص١٣٧ ،
ابن العديم : زبده الحلب ، حـ٣ ص ٢٠٢ ،
ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ ٢ ص ١٣٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ٢٧٧ ،
السبكى : طبقات الشافعية حـ٥ ص ١٥٢ ،
=

وأستمر الأمير فخر الدين يوسف معتقلا فى داره حتى أوائل عام ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) عندما أفرج عنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[١] ، ويشير سبط ابن الجوزى[٢] إلى أن الأمير فخر الدين « لاقى شدائد من الضيق والضرب أثناء وجوده بالحبس ، كما أن القمل ماكان يمكنه — أى فخر الدين — من النوم ».

ويبدو أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لم يقدم على الافراج عن الأمير فخر الدين إلا بعد وفاة أخيـــه الشيخ معين الدين بن شيخ الشيوخ فى رمضان عام ٦٤٣ هـ (١٢٤٦ م) ، وهو الرجل الذى اتخذه الصالح أيوب — كما سبق أن أشرنا — وزيراً له ، لأنه بوفاة معين الدين لم يبق حياً من أولاد صدر الدين شيخ الشيوخ سوى الأمير فخر الدين . وفى نفس الوقت كان الصالح أيوب فى حاجه لمن يقوم بتدبير ملكه ، ولم يكن أمامه بعد وفاة معين الدين إلا أن يفرج عن الأمير فخر الدين ليقوم بتدبير شئون مملكته[٣] ، وعهد إليه بالوزارة[٤] ، ثم

= المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٣٠٩ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ٦ ص ٣٢٠ .

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٦ ،
المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ص ٧٥٥ .
وانظر أيضاً : السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٥ ص ١٥٢ .

(٣) ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ٣٧٤ .
وفوض إليه اختيار من يصلح لتولى شئون الدواوين .
النابلسى : لمع القوانين المضيه ص ٤ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضره ، جـ ٢ ص ٢١٦ .

عهد إليه بعد ذلك بنيابة السلطنة(١) .

وأستمر الأمير فخر الدين يشارك مشاركة فعالة فى أمور السياسة والحكم والحرب منذ الافراج عنه عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٦ م وحتى مقتله عام ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠م .

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٥ ص ١٥٢ .

من الطريف أنه قد وصلت إلى الديار المصرية رسل الخليفة العباسى المستعصم بالله بالخلع والتقاليد للصالح أيوب ، ومعه خلعه لوزيره معين الدين بن حمويه ، غير أن معين الدين كان قد توفى فأمر الصالح أيوب أن يلبس الخلعه أخوه الأمير فخر الدين يوسف .

انظر : ابن العميد : اخبار الأيوبيين ص ١٥٦ ،

المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٣٢٣ .

الأمير فخر الدين مدبر السلطنة :

احتل الأمير فخر الدين مكانة بارزة زمن الكامل محمد الايوبى واتخذه الكامل عوناله فى تدبير شئون السلطنة الأيوبيـة ، من ذلك على سبيل المثال ماحدث عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٧م) عندما خرج الكامل لمحاربة ابن أخيه الناصرداود والاستيلاء على دمشق وإنابة ابنه الصالح أيوب فى حكم الديار المصرية ، « فأقام معه الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ليحصل الاموال ويدبر أمور المملكة »[1]. ولم يقتصر الأمر على ذلك وإنما عهـــد الكامل إلى فخر الدين كذلك بالإشراف على مختلف شئون الدولة ، وأناط به مهمة إختيار من يثق فيهم لولاية الدواوين[2] .

ولم تقتصر جهود الأمير فخر الدين يوسف عند هذا الحد وانما تعدى ذلك الى تدبير الكامل محمد فى بعض المشاكل الخاصة التى اعترضت طريقه .

وهناك حادثة تصرف خـلالها الأمير فخـر الدين يوسف بحكمـة ولباقـة ودبلوماسية مما أدى الى عدم المساس بالسلطان الـكامل . ويحمل هذه الحادثة أنه كان بمصر مغنية تدعى «عجيبة» أولع بها السلطان الـكامل محمد ، فكانت تحضر إليه

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين، ص ١٣٧ ،
المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٢٢٥ .
وأنظر ما سبق ص ٥١ حاشيه رقم ٢ .

(٢) النابلسى : لمع القوانين المضيه ، ص ٤ .

ليلا ، وتغنى له على الدف فى مجلس بحضره الأمير فخر الدين شيخ الشيوخ . ثم أتفق أنه كانت هناك قضية شهد فيها الملك الكامل بنفسه عند القاضى ابن عين الدولة قاضى الوجهين القبلى والبحرى[1] ، فلم يأخذ القاضى بشهادة الكامل تجريحاً له لعلاقته بالمغنية « عجيبة » .غير أن السلطان الكامل أصر على أن يؤخذ بشهادته، وقال للقاضى : أنا أشهد تقبلنى أم لا ؟ فقال القاضى : لا أقبلك ، وكيف أقبلك وعجيبه تطلع اليك بجنكها كل ليله وتنزل ثانى يوم بكره وهى تتمايل سكرى على أيدى الجوارى ، وينزل ابن الشيخ من عندك : فقال له السلطان : ما كيواج — كلمة شتم بالفارسية — فقال القاضى : ما فى الشرع يا كيواج ، اشهدوا على أنى قد عزلت نفسى » .

وعلى هذا النحو عزل القاضى ابن عين الدولة نفسه عن قضاء مصر ، لاصراره على عدم الاخذ بشهادة الكامل ، وأمام اصرار الكامل على الأخذ بشهادته . وكان من المتوقع أن تنتشر هذه الحادثة وتصل الى مسامع كافة الأمراء والحكام والخليفة العباسى ، فى وقت وقف فيه كثير من امراء البيت الأيوبى ببلاد الشام موقفا معاديا من الكامل محمد فكان من المتوقع اذا وصلت اليهم هذه الواقعة أن يتخذوها أداه للتشنيع على الكامل محمد يطالبون بعزله عن الحكم لانحرافه ولهوه

---

(١) هو أبو المكارم محمد بن عين الدوله ، أصله من الاسكندريه ، ولد بها عام ٥٥١ هـ وتربى وعاش بالفسطاط ، تولى قضاء القاهرة والوجه البحرى والقبلى عام ٦١٣هـ ، وكانت له نوادر كثيره، وكان أديبا له نظم ونثر، عفيفا زاهدا ورعا .
أنظر : ابن سعيد الأندلسى : المغرب فى حلى المغرب ح١ ص٢٥٦-٢٥٧
ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، حـ ٥ ص ١٨١ .

وميله الى « عجيبه » . ولا شك فى أن الأمير فخر الدين يوسف الذى كان حاضراً تلك الوقعه خشى من العواقب السيئه التى ستتبعها، لذلك سارع بحسم هذا الموقف الخطير ، فأشار على الكامل بضرورة الاسراع فى اعادة القاضى ابن عين الدولة إلى منصبه « لئلا يقال لأى شيء عزل القاضى نفسه ؟ وتطير الأخبار إلى بغداد ويشيع أمر عجيبه . ونهض إلى القاضى وترضاه وعاد إلى القضاء »[1] .

* * *

وبوفاة الملك الكامل محمد (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) اضطربت أمور السلطنة الأيوبية فى مصر والشام ، وإذا كان الملك الكامل قد أقر على حكم مصر ابنه العادل الصغير ، فإن بلاد الشام وقعت فى فوضى شامله ، وتصارع أمراء البيت الأيوبى حول إمتلاكها ، ولم يكن الأمير فخر الدين يوسف بعيدا عن مضمار هذا الصراع السياسى وإنما شارك فيه مشاركه فعاله .

ويشير صاحب مرآة الزمان[2] ، وهو من المؤرخين المعاصرين لأحداث دمشق فى تلك الفترة ، إنه بعد وفاة الكامل « إختلفت الأمراء فيمن يولون فقالوا لفخر الدين بن الشيخ ، ما تقول فى الجواد ، فقد اتفق الأمراء عليه — أى أن يتولى حكم دمشق — فقال — أى فخر الدين — المصلحة أن يولى بعض الخدام نائبا عن إبن أستاذنا العادل متى شاء عزله ومتى شاء أبقاه ، ولا تولوا أحدا من بيت الملك ما يقدر أحد بعد ذلك عليه ويحكم علينا . وبلغ الجواد ذلك فجاء إلى فخر الدين وقال له : يا فخر الدين أنت وأنا ربينا فى خدمة الكامل وبيننا خبز

---

(١) السيوطى : حسن المحاضره ، جـ ٢ ص١٦١ :

(٢) سبط بن الجوزى جـ ٨ ص ٧٠٧

وملح وأنا مملوكك، ووعده أن يعطيه مائة وخمسين فارساً وعشرة آلاف دينار . فقال فخر الدين : والله ما وافقت إلا على ما فيه مصلحة ابن استاذى » .

غير أن الأمراء لم يأخذوا برأى الأمير فخر الدين يوسف فى استبعاد الجواد من حكم دمشق ، ومالوا إلى رأى شقيقه عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ وأقروا الجواد فى حكم دمشق [1] ، مما دفع الأمير فخر الدين إلى مغادرة دمشق متجهاً إلى مصر ليكون عونا للملك العادل الصغير فى تدبير شئون السلطنه .

ولم يهنأ الأمير فخر الدين بالمقام طويلا فى خدمة الملك العادل الصغير فقد حدث أن خشى الناصر صاحب الكرك بعد حضوره إلى مصر بقصد الاستيلاء عليها عن طريق الحيله خشى أن يفسد الأمير فخر الدين خططه لذلك فكر فى وسيله يبعد بها فخر الدين عن حلبة السياسه والحكم بالديار المصرية، ويشير المؤرخ ابن العميد[2] إلى ذلك بقوله : « بعد أن أقام — أى الناصر داود — عند العادل مده ، استولى على عقله وأوهمه من الأمير فخر الدين بن الشيخ ، بأنه قد اتفق مع الملك المعز مجير الدين عمه[3] ، وانهما قد استمالا جماعة من الأمراء ، واشار — أى الناصر داود — عليه بالقبض على ابن الشيخ وإخراج الملك المعز مجير الدين عمه من البلاد»

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٥

(٢) أخبار الأيوبيين، ص ١٤٥ .

(٣) الملك المعز مجير الدين يعقوب بن العادل ابى بكر بن أيوب توفى سنة ٦٥٤ هـ .

الزبيدى : ترويح القلوب ص ٥٩ وحاشية رقم ٥٤ .

ولم يتأخر الملك العادل عن تنفيذ ما أشار به الناصر داود من القبض على الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ وسجنه عام ٦٣٦ ه (١٢٣٨ م) ظناً منه أن الناصر داود يعمل لمصلحته وحتى تستقيم الأمور له[1] . دون أن يعلم أن الناصر داود ماحضر إلى مصر إلا ليثير الإضطرابات في وجهه ،ويعمل من أجل تقويض نفوذه فى مصر ليسهل عليه الإستيلاء على حكم الديار المصرية ، وأن الأمير فخر الدين لا يعمل هو الآخر إلا من أجل الإبقاء والحفاظ على العادل الصغير ابن استاذه ! !

* * *

وإذ كان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قد خبا نجمه بعض الوقت واعتقل عدة سنوات زمن العادل الصغير ، ثم أطلق سراحه زمن الصالح ايوب الذى عاد وحدد إقامته مره أخرى — كما مر بنا سابقا — فان الصالح ايوب لم يلبث أن اطلق سراحه بعد ذلك واستعان به فى تدبير شئون السلطنه الأيوبيه وعهد إليه بالوزاره ونيابة السلطنه[2] .

---

(١) يشير المقريزى إلى سبب آخر دفع العادل الصغير إلى القبض على الأمير فخر الدين يوسف وهو مراسلته للملك الصالح نجم الدين أيوب ،والذى كان قد توجه صوب الجنوب بقصد الاستيلاء على الديار المصرية من يد العادل الصغير .السلوك، حـ١ ق٢ ص ٢٨٤ وانظر أيضا :

ابن واصل: مفرج الكروب حـ٥ص٢٧٦

(٢) السبكى : طبقات الشافعيه ، حـ ٥ ص ١٥٢ ،

السيوطى : حسن المحاضره ، جـ ٢ ص ٢١٦ .

غير أن الدور الهام الذى لعبه الأمير فخر الدين فى تدبير شئون السلطنة الأيوبية فى الديار المصرية كان بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب نفسه . ذلك أنه حدث فى ليلة الاثنين نصف شعبان عام ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) أن توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة ، بعد ما عهد إلى ابنه الملك المعظم تورانشاه بالحكم ، وحلف له الأمير فخر الدين بن الشيخ وغيره من الأمراء[1] . وفى تلك الأثناء كان الصليبيون قد استولوا على دمياط[2] .

وكانت وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب فى تلك الظروف الحرجة التى تمر بها الديار المصرية يمكن أن تؤدى إلى إنهيار قوة الجيش المصرى أمام الصليبيين ولذلك اتفقت « شجر الدر » أرملة السلطان الصالح أيوب مع الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ الذى كان يتولى وظيفة مقدم العسكر ونائب السلطنة ، والطواشى جمال الدين محسن على ضرورة كتمان خبر وفاة السلطان ، حتى لا يتسرب الضعف إلى نفوس الجند من جهة وحتى لا ينتهز الصليبيون هذه الفرصة فيقوموا بهجوم خاطف على المعسكر الاسلامى من جهة أخرى[3] .

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٩ ،
المقريزى : السلوك ، حـ١ ق ٢ ص ٣٣٩ .

(٢) المقريزى : السلوك حـ١ ق ٢ ص ٣٣٦ ،
أبو المحاسن : النجوم ، حـ٦ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حـ٣ ص ١٨٠ ،
ابن خلدون : العبر ، حـ ٥ ص ٣٦٠ ،
المقريزى : السلوك ، حـ١ ق ٢ ص ٣٤٢ .

وفى نفس الوقت اتفقت شجر الدر مع الأمير فخر الدين يوسف على أن يقوم بتدبير شئون السلطنة إلى أن يحضر الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان الصالح أيوب، والذى كان مقيما بحصن كيفا . (١)

وفى نفس اليوم جمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم « السلطان — الصالح أيوب — يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا ، وللأمير فخر الدين بن الشيخ بأتابكية العسكر(٢) ، وتدبير المملكة»(٣). فأمتثل الأمراء لذلك(٤) ، وقام الأمير فخر الدين بتحليف الأمراء لتورانشاه وله

---

(١) ابن العميد . أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٩ .

حصن كيفا : بلده وقلعة عظيمة مشرفة على دجله بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر .

ياقوت : معجم البلدان ، حـ٢ ، ص ٢٦٥ .

(٢) اتابك العسكر ، أو الأتابك ، لقب يتألف من لفظين تركيين وهما أطا بمعنى أب وبك بمعنى أمير ، وأطلق هذا اللفظ زمن السلاجقه على أحد الأمراء الكبار الذين يولونه الوصاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير . وفى أيام المماليك بمصر أطلق على مقدم العسكر أو القائد العام للجيش ولذلك سمى بأتابك العسكر .

انظر : القلقشندى : صبح الأعشى حـ٤ ص ١٨ ،

المقريزى : السلوك ، حـ١ ص ١٤٦ حاشية رقم ١ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حـ٣ ص ١٨٠ ،

المقريزى : السلوك حـ١ ق٢ ص ٣٤٢ .

(٤) ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ٣٢٣ .

من بعده[1] ، كما أنفذ إلى مختلف البلدان بمصر والشام بنسخة الايمان ليحلف كافة الأمراء للمعظم تورانشاه[2] .

والجدير بالذكر أن كل هذه الاجراءات اتخذت دون أن يعلم الفرنج ولا سائر الأمراء بخبر وفاة الصالح أيوب[3] . مما يدل على براعة الأمير فخر الدين بن الشيخ الذى تولى من اللحظة التى توفى فيها الصالح أيوب أمر تدبير السلطنة .

وعلى هذا النحو تولى الأمير فخر الدين يوسف شيخ الشيوخ أتابكية العسكر وتدبير المملكة الأيوبية بمصر والشام دون أن يشاركه أحد فى ذلك . وخلال الفترة القصيرة التى قضاها فخر الدين فى حكم الديار المصرية إنطبعت البلاد بطابعه الخاص فقطع البلاد بمنشوراته وفرق الأموال والخلع على خواصه من الامراء ، كما أطلق المسجونين من سجونهم ، وأحسن إلى الناس ، وأطلق الكتان والسكر إلى الشام[3] ، وأعاد تنظيم الجند وزاد عدد الجنود المرابطين أمام معسكر الصليبيين بدمياط ، كما شحن أشموم طناح[4] بالجند والسلاح[5] . كما أرسل جماعة من أعوانه لإحضار

---

(1) أبو المحاسن : النجوم ، حـ٦ص٣٣٢ .

(2) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٥٩ ،

أبو المحاسن : النجوم ، حـ٦ ص٣٣٢ .

(3) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ٨ ص ٧٧٦،

ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٩ ،

المقريزى : السلوك حـ١ ق ٢ ص ٣٤٣ – ٣٤٤

(4) أشموم طناح من أقدم المدن المصرية ، مدينة فى الدقهلية قرب دمياط ، وأصل اسمها القبطى أشمون الرمان .

انظر : محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، حـ١ق٢ص٢١٥،٢٢٩ .

(5) حوليات جوانفيل ، ص ١٠٧

المعظم ثوار نشاه سراً ليتولى السلطنة خلفاً لوالده الصالح أيوب [1] .

ومن الطريف أن الكتب التى كان يرسلها فخر الدين كانت عليها علامة السلطان الصالح أيوب ، ويقال أن أحد الخدم ويسمى « سهيل » كان يقلد علامة السلطان [2] ويقال أيضا أن السلطان علم قبل موته عشرة آلاف علامة ليستعان بها فى المكاتبات لإخفاء وفاته إلى حين حضور ولده تورانشاه [3] .

ونتيجة لنجاح فخر الدين يوسف فى سياسة المملكة والتفاف قلوب أهالى الديار المصرية حوله ، حسده الجند وسائر الأمراء وخشوا من استيلائه على حكم البلاد فعزموا على قتله ونهب داره . وعندما علم بذلك فخر الدين إستدعى الأمراء والأكابر وقال لهم : أنا مالى طمع فى الملك وإنما أحفظ بيت أستاذى حتى يجيء ولده ويتسلم البلاد . فحلفو وإعتذروا . ويشير سبط بن الجوزى [4] إلى أن الذى حرك هذه المؤامره هو الطواشى محسن ، الذى امتلأ قلبه حقداً وكرهاً على الأمير فخر الدين يوسف .

وإذا كان الأمير فخر الدين يوسف قد تخلص من تلك المؤامرة التى حاكها

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ص ٧٧٦ ،
أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ١٨٠ ،
ابن خلدون : العبر جـ٥ ص ٣٦٠ .

(٢) المقريزى . السلوك جـ١ ق ٢ ص ٣٤٣ .

(٣) المصدر السابق جـ ١ق٢ ص ٣٣٩ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ص ٧٧٦ — ٧٧٧

الطواشى محسن ، فان الخطر الأكبر الذى واجهه فى تلك الفترة كان من ناحية الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى نائب السلطنه بمصر ، الذى كان لا يميل إلى فخر الدين منذ أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فيشير ابن ايبك (١) إلى أن الأمير حسام الدين كان أوثق وأمكن عند السلطان الصالح أيوب من الأمير فخر الدين بن الشيخ ، خاصة وأن الأمير فخر الدين إبتعد فى السنوات الأولى من حكم الصالح أيوب عن حلبة السياسة والحكم ، فى حين إنشغل الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ فى تحقيق الإنتصارات الخارجية خاصة فى دمشق كما سبق أن أشرنا ، مما أتاح الفرصة للأمير حسام الدين للإنفراد بكثير من أمور الدولة وأن يتوثق لنفسه داخل الديار المصرية ، لذلك حقد على الأمير فخر الدين يوسف بعد أن أطلقه الصالح أيوب وأسند إليه مهمة تدبير السلطنة ، كما أن محبة أهالى الديار المصرية لفخر الدين بن الشيخ زادت من حقد حسام الدين . لذلك لم يكن من المتوقع أن يرحب الأمير حسام الدين بانفراد فخر الدين بتدبير شئون المملكة ، وإنما خشى من استقلاله بحكم الديار المصرية ، أو أن يقيم فخر الدين الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل فى حكم مصر بدلا من المعظم نورانشاه ، ويستولى على حكم مصر خاصة وأن المغيث عمر كان طفلا صغيرا (٢) لذلك سارع بارسال أحد الأمراء التابعين له ليحضر المعظم تورانشاه على وجه السرعة وأعلمه «بأن المصلحة فى السرعة ، ومتى تأخرت فات الفوت وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد» (٣)

---

(١) الدر المطلوب ، ص ٣٧٤

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٥ .

(٣) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

=

وفى نفس الوقت سارع الأمير حسام الدين بنقل : الملك المغيث عمر من عند عمات أبيه بنات الملك العادل بن أيوب إلى قلعة الجبل ، ووكل به من يحتاط عليه ولا يسلمه لأحد ، حتى يفسد على فخر الدين يوسف كل خططه .

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من العداء الدفين بين كل من الأمير فخر الدين بن الشيخ وبين الأمير حسام الدين الهذبانى فانهما فى ظاهر الأمر أظهرا المجاملات ، وقد أشار إلى ذلك تقى الدين المقريزى (١) بقوله : « والمكاتبات ترد من الأمير فخر الدين وعنوانها : من الأمير فخر الدين الخادم يوسف فيجيب عنها الأمير حسام الدين ويجعل العنوان « المملوك أبو على » ، فيتجاملان فى ظاهر الأمر وأما فى الباطن فان الأمير فخر الدين أخذ فى الإستبداد والاستقلال بالمملكة ، وصار يركب فى موكب عظيم ، وجميع الأمراء فى خدمته ، ويترجلون له عند النزول ويحضرون سماطه » .

ولم يكن الامير حسام الدين وحده هو المتخوف من نوايا الامير فخر الدين وإنما شاركه فى ذلك الخوف عدد كبير من الامراء ، لدرجة أن جماعة المماليك الذين أرسلهم فخر الدين إلى الكرك لإستعجال المعظم تورانشاه فى المسير إلى مصر لتسلم عرشه ، أوهموا هم الآخرين المعظم تورانشاه وقالوا له : « إن الامير فخر الدين حلف العسكر لنفسه ، ومتى وصلت قتلك » مما جعل قلب المعظم تورانشاه يوغر حقداً على الامير فخر الدين قبل حضوره إلى مصر . كما أن

= كان رسول حسام الدين إلى المعظم تورانشاه الأمير سيف الدين اقطاى الجدار .

انظر : ابن العميد : اخبار الأيوبيين ، ص ١٥٩ .

(١) السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٣٤٥

تورانشاه بذل الاموال لهؤلاء الجند لإجتذابهم إليه ، كما « حلفهم على قتل فخر الدين نفسه »(١).

وعلى هذا النحو وقف كافة الامراء ضد الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ. ويبدو أن السر وراء تخوف الامراء من الامير فخر الدين هو ما تمتع به فخر الدين من شخصية قوية وعقلية سياسية ومهاره حربية فائقه حببت فيه أهالى الديار المصرية ، وبالإضافة إلى ذلك كان انتماء فخر الدين لاسرة شيخ الشيوخ وما تتمع به هذه الاسرة من مكانة طيبة فى نفوس أهال الديار المصرية أثره فى محبتهم له لدرجة أنهم عرضوا عليه السلطنة ولكنه رفض .(٢)

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ٨ ص٧٧٦ — ٧٧٧ .

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ٨ ص٧٧٧ ،

المقريزى : السلوك ، حـ١ ، ٢ ص٣٤٢ ،

حوليات جوانفيل ، ص١٠٨ .

دبلوماسية الأمير فخر الدين

سفارة الامير فخر الدين الى اوربا :

ثارت الخلافات بين كل من الملك الكامل محمد سلطان الديار المصرية ، وبين أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق ، وإستعان المعظم عيسى بقوة جلال الدين الخوارزمى واتفق معه على الاستيلاء على بعض ممتلكات أخيه الاشرف موسى ، وعلى أن يسقط اسم الكامل محمد من الخطبة من على منابر دمشق ويخطب للخوارزمى[1] . فخشى الكامل « أن يكون اتفاقهما — المعظم عيسى وجلال الدين الخوارزمى — سببا لزوال الدولة »[2] ، لذلك أخذ يفكر فى وسيلة يستعين بها لضرب ذلك التحالف المقام ضده .

وأخيرا وجد الكامل ضالته فى قوة فردريك الثانى (٢١٢ — ١٢٥٠ م /

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ص ٦٣٤ ،
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ١٠ ورقة ٦٩ (مخطوط) ،
الحموى : التاريخ المنصورى ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص ٢١٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ،
العماد الحنبلى : شفاء القلوب ، ورقة ٨٥ (مخطوط) ،
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ١٠ ورقة ٨٨ (مخطوط) .

٦٠٩ ــ ٦٤٨ ﻫ) امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، الذى عرف بميله للمسلمين[1] ، واشتهر بأنه كان شاعراً محباً للأدب والفن فضلا عن إجادته الألمانية والإيطالية واللاتينية والعربية ، محبا للحكمة والمنطق والطب متبحراً فى علم الهندسة والحساب والرياضيات[2] . وقد إهتم فردريك الثانى بإيجاد علاقات طيبة مع حكام البلدان الاسلامية خاصة حكام مصر والشام من أبناء البيت الايوبى . وقد عاصره فى تلك الفترة الملك الكامل محمد الايوبى سلطان مصر ، وكان الملك الكامل هو الآخر محباً للعلم والعلماء ، مما أدى إلى إتفاق الرجلين[3] .

وكان على الكامل محمد أن يختار سفيرا يتمتع بعلم واسع وذكاء مفرط ، وشخصية قوية ، ليكون رسوله إلى فردريك الثانى . ولم يكن لدى الكامل محمد أفضل من الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وهو الذى تنطبق عليه هذه الصفات ،

---

(١) نشأ فردريك الثانى فى صقليه التى كانت تموج بالتيارات العربية واليونانية مما كان له تأثير كبير فى تعليمه وتربيته .

انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ص ٢٣٢ ،

Kantrowicz : Fredrick the Second, P 21,

Archer : The Crusades, P 379,

حامد زيان : تاريخ الحضارة الاسلامية فى صقليه ، ص ١١٧ ــ ١١٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ص ٢٣٤ ،

العينى : عقد الجمان ، حوادث عام ٦٢٥ ﻫ (مخطوط) .

(3) Lane-Poole : Hist of Egypt, P 226,

Archer : The Crusades, P 381.

فهو من بيت علم ومعرفة ودين ، وله درايه واسعة بالعلوم والمعارف الحكمية ذو شخصية قوية ، لذلك أختاره الكامل لتلك المهمة الصعبة .

وفى منتصف عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م سافر الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة لمقابلة الامبراطور فردريك الثانى ، حيث إستقبله فردريك أحسن استقبال بمدينة بالرمو بجزيرة صقليه ، وعرض عليه فخر الدين ترحيب سيدة الكامل بقدوم فردريك الثانى إلى عكا والتنازل له عن بيت المقدس. وبالطبع رحب فردريك بهذا العرض منتهزاً فرصة الخلافات الناشبه بين الكامل وأخيه المعظم عيسى ، كى يحصل على بيت المقدس بدون حرب(١) .

ويبدو أن الامبراطور فردريك الثانى قد افتتن بعلم وحكمة الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، فقربه إليه ، وتناقشا معا فى كثير من المسائل الحكمية ، وكثيرا مادارت بينهما مناقشات علمية حوت موضوعات تاريخية ونظريات متصلة بعلم السياسة وفن الحكم(٢) . ويشير الحموى إلى أن المحاورات التى جرت بين فردريك الثانى والأمير فخر الدين شملت « أشياء ومسائل حكمية »(٣) .

وبعد أن قضى فخر الدين فترة من الوقت بصقليه فى ضيافة الامبراطور فردريك الثانى ، عاد إلى مصر بعد أن توطدت علاقته الشخصية بالامبراطور

Kantrowicz . Fredrick the Second, P 183, (1)
Alfred Duggan . The Story of the Crusades, P 225,

(٢) جمال الدين الشيال : فى التاريخ ، ص ٣٨٢ .

(٣) الحموى : التاريخ المنصورى ، ص ٨٥ .

فردريك الثانى ، تلك العلاقة التى إستمرت قائمة بين الرجلين بعد عودة فخر الدين إلى مصر [1] .

سفارة الأمير فخر الدين الى الخليفة العباس عام ٦٢٦ هـ :

عقب وفاة الملك المعظم عيسى فى نهاية عام ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) . بدأ الكامل يفكر جديا فى تصفية مملكته التى آلت إلى ولده الناصر داود ، وإتخذ من رفض الناصر داود التنازل له عن قلعة الشوبك ذريعة ليعلن الحرب عليه [2] . وإتفق مع أخيه الأشرف موسى بن العادل على تقسيم مملكة الناصر داود فيما بينهم بمقتضى إتفاقية تل العجول (أوائل عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) . ونص هذا الإتفاق على إنتزاع دمشق من يد الناصر داود وأن تكون للأشرف هى وما معها إلى عقبة فيق [3] ، ويكون للكامل ما بين عقبة فيق وغزه من البلاد والحصون ، أما الناصر داود فقد عوض عن دمشق بحران والرقه وسروج ورأس عين [4] .

---

(١) الحوى : التاريخ المنصورى ، ص ٣٤ ٣٧ ،

Gabrielle . Arab historians of the Crusade, P 280—82.

(٢) العينى : عقد الجمان ، حوادث عام ٦٢٦ هـ (مخطوط) .

(٣) عقبة فيق ينحدر منها إلى الغور — غور الأردن — ومنها يشرف على طبريه وبحيرتها .

ياقوت : معجم البلدان ، حـ٤ ص ٢٨٦ .

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ٨ ص ٦٥٢ ،

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٩ ص ٣٧٧ ،

ابن واصل : مفرج الكروب حـ٤ ص ٢٣١ . =

وبعد أن استصفى الكامل ممتلكات الناصر داود وأمن مملكته من جهة بلاد الشام ، أرسل (في أوائل عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) سفاره إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر يخبره فيها بتطورات الموقف الجديد ، وكان على رأس هذه السفاره الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[1] .

ولم يمكث الأمير فخر الدين ببغداد كثيراً ، وإنما عاد إلى مصر بعد أن أبلغ الرسالة التي كلف بها إلى الخليفة ، حيث كانت تنتظره مهمة دبلوماسية أخرى وهي استكمال المفاوضات التي بدأها قبل سفره إلى بغداد مع الامبراطور فردريك الثاني .

= حران : مدينة عظيمة مشهوره ، قصبة ديار مصر ، على طريق الموصل والشام والروم (ياقوت : البلدان ، جـ٢ ص٢٣٥) .

الرقه : مدينة مشهورة على الفرات ، بينها وبين حران ثلاثة أيام (ياقوت : البلدان ، جـ٣ ص ٥٩) .

سروج : بلده قريبه من حران من ديار مضر (يافوت : البلدان ، جـ ٣ — ٢١٦) .

رأس عين : مدينة كبيرة مشهوره من مدن الجزيرة (ياقوت : البلدان ، جـ ٣ ص ١٤) .

(١) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ق ١ ص ٢٣٦ .

الأمير فخر الدين ومحادثات السلام مع فردريك الثانى :

فى نهاية عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م وصل فردريك الثانى إلى عكا ، وفى صحبته ستمائة فارس من حرسه الخاص[1] ، ليتسلم بيت المقدس وفق دعوة الكامل له . غير أن الأحداث فى منطقة الشرق كانت قد تغيرت كثيراً بعد وفاة المعظم عيسى وزوال الخطر الذى تعرض له الكامل من جهته ، ولكن فى نفس الوقت فإن الكامل لايستطيع إنكار حق فردريك الثانى فى بيت المقدس ، لما تقدم بينهما من إتفاق . وعلى هذا النحو تحير الملك الكامل[2] . وزاد من قلق الكامل وحيرته أنه وقع فى صراع مع الناصر داود بن المعظم عيسى ، فخشى الكامل إنقلاب الأمور ،فيستنجد الناصر داود بالامبراطور فردريك ضده ،فتفشل خطته الرامية إلى فرض نفوذه على جنوب بلاد الشام ، لذلك إتخذ أسلوباً دبلوماسياً وهو شغل فردريك الثانى فى إجراء مفاوضات مطوله حتى يستطيع أثناءها تصفية ممتلكات الناصر داود .

وكان الأمير فخر الدين هو المفاوض الأول والسفير ذا الكلمة والرأى المسموع لدى كل من الكامل محمد وفردريك الثانى . وهكذا بدأ الأمير فخر الدين سلسلة من المفاوضات استغرقت الجزء الباقى من عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) وبداية عام ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) ، حتى تم توقيع اتفاقية تل العجول السابق الإشارة إليها .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٣ ص٢٠٥ ،
Stevenson : The Crusaders in the East, P 309,
Archer : The Crusades, p 381.

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ق ١ ص ١٢٨ ،
العينى : عقد الجمان ، حوادث عام ٦٢٤ هـ (مخطوط) .

وأستطاع الكامل بمقتضاها تصفية ممتلكات الناصر داود ، ومن ثم بدأت المفاوضات تتعثر حيناً وتتوقف حيناً آخر ، إلى أن أستطاع فخر الدين أن يصل إلى توقيع إتفاقية يافا فى ٢٨ ربيع الأول عام ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) بين الكامل محمد وفردريك الثانى ، وهى تنص على « أن يأخذ الامبراطور القدس بشرط أن تظل على ماهى من الخراب ولا يجدد سورها وأن تكون سائر القرى للمسلمين لا حكم فيها للفرنج وأن الحرم بما حواه من الصخره والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين لا يدخله الفرنج إلا للزياره فقط ، ويتولاه قوم من المسلمين وتقوم فيه شعائر الاسلام من الأذان والصلاة وأن تكون القرى التى فيما بين عكا ويافا واللد والقدس بأيدى الفرنج دون ماعداها من قرى القدس »[1] .

وعلى هذا النحو تحقق السلام بين الكامل محمد سلطان الديار المصرية وبين فردريك الثانى إمبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، واحتفظ الكامل بصداقة فردريك الثانى أعظم أباطرة الغرب وذلك بفضل براعـــة دبلوماسية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ص ٣٧٨ ،
ابن العميد : أخبار الأيوبيين، ص ١٣٧ ،
ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٤ ،
ابن العديم : زبده الحلب ، جـ٣ ص ٢٠٥ .

ويشير المقريزى إلى أن الامبراطور فردريك أعتذر للامير فخر الدين بن الشيخ بأنه « لولا يخاف إنكسار جاهه ماكلف السلطان شيئاً من ذلك ، ماله غرض فى القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج » . السلوك ، جـ١ ق١ ص ٢٣٠ .

الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[1] .

ومن طريف ما يذكر أن علاقة الامبراطور فردريك الثانى بفخر الدين بن الشيخ لم تنته بتوقيع إتفاقية يافا أو برحيل فردريك إلى أوربا ، ولكنها أستمرت قائمة بعد عودة فردريك إلى أوربا ، واستمرت المراسلات والمكاتبات بين الرجلين قائمة ، ويشير المقريزى[2] إلى أنه فى عام ٦٢٧ هـ (١٢٣٠م) « ورد رسول ملك الفرنج — فردريك الثانى — بكتابه إلى الملك الكامل بحران ، ومعه أيضاً كتاب للأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ » .

---

(١) Stevenson : The Crusaders in the East, P 313.

(٢) السلوك ، جـ١ ق١ ص ٢٣٧ .

معارك الامير فخر الدين :

معاركه فى جزيرة العرب :

لم يقتصر الدور الذى لعبه الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على المهام السياسية والدبلوماسية فقط ، وانما تعداها إلى المهام الحربية أيضا حيث تقلد فى بعض الفترات وظيفة مقدم العساكر .

وقد اشترك الأمير فخر الدين فى أكثر من جبهة قتال ، وأحرز انتصارات كبيرة مثله فى ذلك مثل بقية ميادين السياسة ، التى شارك فيها .

ومن ميادين القتال التى شارك فيها فخر الدين ميدان جزيرة العرب ، حيث أوفده الملك الكامل محمد على رأس جيش عام ٦٢٩ هـ (١٢٣١م) إلى مكة لمساندة أميرها « طغتكين » بعد أن طمع فى الاستيلاء عليها نور الدين بن على بن رسول أول ملوك الدوله الرسوليه باليمن(١) بمساعدة راجح بن قتاده(٢) .

ومكث الأمير فخر الدين ببلاد الحجاز متنقلا بين مكة وينبع حتى شهر شوال عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م) عندما رحل عن مكة راجح بن قتاده والعسكر اليمنى ، واستقر بها حكم الملك الكامل محمد(٣) .

---

(١) يحيى بن الحسين :غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ص ٤١٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٣) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٥٩ — ٣٦٠ . =

معاركة ضد الخوارزمية :

شكلت الخوارزميه خطراً كبيراً على سلطنة الصالح أيوب ، فبعد أن كان يعتمد عليهم فى معاركه إعتمادا كبيرا[1] ، اذ به يفقد ثقته فيهم منذ غدرهم به عام ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) وتركه يقع أسيرا فى يد الملك الناصر داود حيث حبس بحصن الكرك دون أن يحاولوا القتال فى جانبه أو العمل على فك أسره[2] . وبعد أن قدر الصالح أيوب أن يلى حكم الديار المصرية أخذ يتتبع تحركات الخوارزميه خشية تكوين جبهة مضادة ضده ، خاصة بعد أن ازداد غضبهم نتيجه ماحدث عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) عند ماخرج معين الدين بن شيخ الشيوخ الى بلاد الشام لمحاربة الصالح اسماعيل ومن حالفه من الأمراء الخارجين عن طاعة الصالح أيوب ، وأثناء تلك الحرب قدم الخوارزميه مساعدات كبيره لمعين الدين بن شيخ الشيوخ ، وانتظر الخوارزميه مقابلا لخدماتهم ، غير أن معين الدين لم يحفظ للخوارزميه مساندتهم له ولم يمنحهم أيا من بلاد الشام ، فنفرت نياتهم وفسدت ، واتفقت كلمتهم على الخروج عليه[3] .

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٢ — ٣٣ ،

على بن حسين : الملاقات الحجازية المصرية ، ص٢٥

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ق١ص ٢٥٥ .

(٢) عن أحداث هذه الفتره وأسر الصالح أيوب وسجنه بالكرك انظر :

المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٨٤ ٢٨٨ ،

أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص٣٥٠ ،

وعن هذا الموضوع انظر :

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ص ١٠٤٢ — ١٠٥٠

وإزاء هذا الوضع لم يتردد الخوارزميه فى الاتفاق مع الناصر داود — الذى كان معاديا للصالح أيوب — عام ٦٤٤ ﻫ (١٢٤٦ م) الذى تزوج منهم واختلط بهم وقويت شوكته بإتيانهم اليه وأطمعته نفسه بالبلاد »[١] . ولم يلبث أن خرج الناصر داود من الكرك وبصحبته الخوارزميه واتجهوا إلى البلقاء[٢] — وكانت من ممتلكات الصالح أيوب — للاستيلاء عليها .

وعندما علم الصالح أيوب بكل هذه التطورات انزعج انزعاجاً شديدا ، وجهز على الفور جيشاً كثيفا لتأديب الخوارزميه والناصر داود ، وعهد بقيادة هذا الجيش إلى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ .

واتجه الأمير فخر الدين على رأس هذا الجيش الكثيف إلى غزه ومنها إلى الصلت حيث تقابل مع الناصر داود والخوارزميه وأنزل بهم الهزيمة فى ١٧ ربيع الآخر عام ٦٤٤ ﻫ (١٢٤٦ م) وفر الناصر داود والخوارزميه الى الكرك[٣] . فى حين استولى فخر الدين على البلقاء ، ثم تابع سيره إلى الكرك حيث ضرب عليها الحصار[٤] .

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٥٧ ،

(٢) البلقاء كوره من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى .

ياقوت : معجم البلدان ، حـ١ ، ص ٤٨٩ .

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، حـ٨ ص ٧٦١ ،

(٤) ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ٣٨٩ .

المقريزى : السلوك ، حـ١ ق٢ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ .

وبعد أن اشتد الحصار على الناصر داود ، أرسل إلى فخر الدين يستعطفه ويطلب منه رفع الحصار عن الكرك ، فاشترط فخر الدين لرفع الحصار عن الكرك أن يسلم الناصر داود إليه كل من عنده من الخوارزميه ، واضطر الناصر داود ان يوافق على هذا الشرط ، وأخرج إلى فخر الدين كل من عنده من الخوارزميه فتسلمهم فخر الدين(١) .

ولما كان فخر الدين يتمتع بقسط وافر من المهاره السياسيه والدبلوماسية ، فانه لم ينزل أي ضرر أو عقاب بالخوارزميه وإنما عمـــل على استمالتهم إليه وأحسن اليهم ، وخلع عليهم وطيب قلوبهم واستصحبهم صحبته ، وكسبهم إلى جانبه(٢) .

محاربة الامير فخر الدين للامراء الخارجين عن السلطنه الايوبية :

وقف كثير من امراء البيت الايوبى بالشام موقفا معاديا من مركز السلطنه الايوبية بالديار المصرية ، ومن أولئك الأمراء كان الناصر داود بن المعظم عيسى الذى استمر يمثل شوكة فى ظهر سلاطين الدوله الايوبية ، منذ أن انتزع منه الكامل محمد دمشق ، وأخذ الناصر داود يتحين الفرص للإنقضاض على دمشق والإستيلاء عليها . من ذلك مثلا انه انتهز فرصة الاضطرابات التى حدثت بسبب

---

(١) ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ٣٥٩ ،
ابن العميد : أخبار الايوبيين ، ص ١٥٧ ،

(٢) ابن العميد . أخبار الايوبيين ، ص١٥٧ :
المقريزى : الخطط ، ج٢ ص ٣٢ — ٣٣ .

الخلافات الناشبة بين الكامل والصالح اسماعيل ، فخرج بجيشه واتجه صوب دمشق وفرض عليها الحصار عام ٦٣٥ ﻫ (١٢٣٧ م) . فلم يكن من الكامل محمد الا أن أرسل الأمير فخر الدين على رأس جيش كبير لانقاذ مدينة دمشق من السقوط فى يد الناصر داود ، وما أن اقترب فخر الدين من دمشق حتى رفع عنها الناصر داود الحصار وفر هارباً لعدم استطاعته الصمود فى وجه فخر الدين بن شيخ الشيوخ[1] .

ولا يعنى فرار الناصر داود القضاء عليه أو اضعاف قوته ، وانما استمر يقلق بال السلطنه الأيوبية . وأخيرا عزم الصالح نجم الدين أيوب على القضاء على قوة الناصر داود نهائياً ، فسير الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ عام ٦٤٤ ﻫ (١٢٤٦م) على رأس جيش كثيف الى أملاك الناصر داود ، وحاصر فخر الدين الكرك وخرب ضياعها . ويبدو أن الحمله التى قادها فخر الدين هذه المره كانت من القوه بحيث حطمت قوة الناصر داود ، وقلمت أظافره ، واستولى فخر الدين أثناءها على معظم أملاك الناصر ولم يترك له سوى الكرك ، وضعف الملك الناصر ضعفا بالغا[2] . وبذلك نجح الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فى الحد من نفوذ وسطوة الناصر داود الذى كان يمثل شوكة فى ظهر السلطنه الأيوبية .

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ص ٧٠٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ٣٦٤ ،
أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ١٧٥ ،
أبو المحاسن : النجوم ، جـ٦ ص٣٢٦ .

ولم يكن الناصر داود هو الطامع الوحيد فى الاستيلاء على دمشق وإنما كان الملك الناصر الثانى صلاح الدين يوسف صاحب حلب (٦٣٤ – ٦٥٨هـ/١٢٣٦ – ١٢٦٠م) هو الآخر من الامراء الطامعين فى الاستيلاء على دمشق من يد الصالح نجم الدين أيوب ، فقد اتجه بجيوشه اليها عام ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) مما دفع الصالح أيوب إلى أن يأمر قائده الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بالاسراع لنجدة دمشق. حيث أخذ فى ترتيب أمورها مع كلا من شهاب الدين رشيد الذى عهد اليه الصالح أيوب بتدبير شئون دمشق ، وجمال الدين يحى بن مطروح وزير دمشق و « أنعم عليهم واعطاهم النفقات والخلع »[1].

وفى نفس العام (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) خرج فخر الدين على رأس جيوشه لمنازلة حمص التى كانت بيد الناصر صلاح الدين ، وذلك انتقاما منه لتهديده المستمر لمدينة دمشق ، وفرض عليها الحصار ، وأخذت المجانيق تقذف حمص بأحجار حملت من دمشق يصل زنة الواحد منها « مائة وأربعون رطلا » . واستمر الحصار مفروضاً على حمص حتى توسط الخليفة العباسى أبو أحمد عبدالله المستعصم بالله بن المستنصر (٦٤٠ – ٦٥٦هـ /١٢٤٢ – ١٢٥٨م) فى الصلح ، فرفع فخر الدين يده عن حمص « بعدما أشرف على أخذها »[2].

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٨ ،

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ص٧٧٠ ،

ابن العميد : اخبار الأيوبيين ، ص ١٥٨ .

ابن خلدون : العبر ، جـ٥ ص ٣٥٨ – ٣٥٩ ،

المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٣٣١ ،

محاربة الأمير فخر الدين للصليبيين :

لم تقتصر جهود الأمير فخر الدين الحربية عند هذا الحد ، وإنما تمدتها إلى قتال الصليبيين . من ذلك مثلا ماحدث عام٦٤٥ هـ (١٢٤٧م) عندما عهد إليه السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالإستيلاء على كل من عسقلان وطبرية ، وبدأ فخر الدين بطبرية حيث فرض عليها الحصار ، واستولى عليها بالقوة من يد الصليبيين (١) . و « هدم ما استجده بها الفرنج من القلاع » (٢) ثم إتجه بعد ذلك صوب عسقلان واستولى عليها بالقوة أيضا (٣) وسلمها إلى نواب الملك الصالح أيوب .(٤)

أما الدور الحاسم الذى لعبه الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فى قتـــال الصليبيين فكان فى عام ٦٤٧هـ(١٢٤٩ / ١٢٥٠ م) بعد وصول الحملة الصليبية السابعة إلى مصر .

وكان للعلاقات الودية التى ربطت الامبراطور فردريك الثانى بالسلطان الكامل محمد ثم ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، تلك العلاقات الودية التى كان الأمير فخر الدين يوسف عاملا أساسياً فى قيامها، كان لها أثر حميد فى تلك المعارك التى شنتها البابوية

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ص ٨٦٦ ،
أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ١٧٦ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ٦ ص ٣٥٨ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ق٢ ص ٣٢٧ .
(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٨ ،
ابن خلدون : العبر ، جـ٥ص ٣٥٨—٣٥٩ .
(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ص٧٦٦ .

على بلاد الشرق الإسلامى خاصة مصر قلب العالم الإسلامى . فقدأنهى الأمبراطور فردريك الثانى إلى علم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أخبار تلك الحملة الصليبية التى أعدتها البابوية وتقرر أن يخرج على رأسها ملك فرنسا لويس التاسع ، بقصد الإستيلاء على مصر [1] وبعد أن علم الصالح أيوب بتطورات الموقف فى أوربا وقرب وصول الحملة الصليبية إلى مصر ، إتخذ من الترتيبات العسكرية ما يضمن به عدم سقوط دمياط — التى كانت مقصد الصليبيين — فى يد الصليبيين .

وتفصيل ذلك أنه عقب وصول رسالة الامبراطور فردريك الثانى إلى الملك الصالح — وكان حينئذ ببلاد الشام — يحذره فيها من وصول الحملة الصليبية إلى دمياط ، أمر الملك الصالح قائده فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالإسراع والذهاب إلى دمياط وشحنها بالجنود والسلاح [2] ، « ليصير فى مقابلة الفرنج إذا قدموا » [3] . وفى نفس الوقت أمر بنى كنانه [4] المشهورين بالشجاعة والبسالة فى الحروب [5] أمرهم بالبقاء بدمياط للدفاع عنها إلى جانب الحامية العسكرية

---

(١) ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ٣٦٦ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق٢ ص ٣٣٣

(٤) بنو كنانه من مشاهير العرب المستعربه ، وكنانه بن خزيمه بن مدركه ابن الياس . وقد قطن أفراد هذه القبيلة بدمياط وما حولها .

انظر : القلقشندى: قلائدالجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ص١٢٣ — ١٣٥

(٥) أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ١٧٨ .

والجيش[1]. أما السلطان الصالح أيوب فقد اتجه إلى أشموم طناح ليرقب الموقف[2].

وفى الساعة الثانية بعد ظهر يوم الجمعة (تسع بقين من شهر صفر عام ٦٤٧هـ) وصلت مراكب الفرنج البحرية صحبة ريدافرنس — لويس التاسع ملك فرنسا — إلى دمياط ، وفى اليوم التالى نزلوا إلى « البر الذى عساكر المسلمين فيه ، وهو البر الغربي[3]. وفى نفس الليله رحل الأمير فخر الدين يوسف بمن معه من عساكر المسلمين من البر الغربي إلى البر الشرقى واتجه صوب أشموم طناح ، وعندما رأى أهل دمياط رحيل الجيش صحبة الأمير فخر الدين تركوا المدينة وخرجوا فى نفس الليلة هائمين على وجوهم وهم حفاه عراه خياع فقراء حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء وساروا إلى القاهره ، « ولم يبق بالمدينة أحد البتة ، وصارت دمياط فارغة من الناس جملة[4] » ، كما أن بنى كنانة الذين اعتمد على شجاعتهم الصالح نجم الدين أيوب تركوا دمياط مثلهم فى ذلك مثل الجيش والحاميه وأهل دمياط . وفى الصباح — التاسع من صفر — وجد الصليبيون دمياط خالية تماماً من حراسها وأهلها « فدخلوا المدينة بلا كلفه ولا مؤنة حصار »[5] .

---

(١) ابن خلدون : العبر ، حـ ٥ ص ٣٥٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ، حـ ١ ق٢ ص ٣٣٣ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، حـ ١ ق ٢ ص ٣٣٥ ،

Stevenson : The crusaders in the East, p 325

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ ٢ ص ٥٧٦

المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق٢ ص ٣٣٥ ،

Gottschalk : Awlad el Shaykh,p 766 .

(٥) ابن العميد : أخبار الأيوبين ، ص ١٥٨ ، =

ولم يسلم الأمير فخر الدين من نقد ولوم الصالح نجم الدين أيوب ، الذى تغير قلبه على الأمير فخر الدين ، وغضب غضباً كثيراً على تصرف فخر الدين بمغادرة دمياط وإخلائها من السكان ، وقال له : « أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج[1] » . وقد خشى كثير من الأمراء غضب الصالح أيوب ، وهمسوا للأمير فخر الدين بتخوفهم من غدر السلطان بهم وقتلهم ، وأشاروا عليه بالتخلص منه قبل أن يقدم على قتلهم ، فأشار عليهم الأمير فخر الدين بالتريث والصبر « حتى يتبين أمر السلطان فإنه على خطه — أى مريض مرض الموت — وإن مات كانت الراحه منه وإلا فهو بين أيديكم »[2] .

= ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٦٩ ،

Stevenson : op. cit, P 327.

(١) ويبدو أن الأمير فخر الدين قد أخطأ فى هذا التصرف ، لأن دمياط كان من الممكن أن تصمد فى وجه الصليبيين خاصة بعد أن شحنها الصالح أيوب بالسلاح والعتاد بالاضافه إلى وجود بنى كنانه الذين اشتهروا بالشجاعة والاقدام .
أنظر : ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ، حـ ١ ق ٢ ص ٣٣٦ .

لم يسلم الأمير فخر الدين من نقد المؤرخين له على ترك دمياط تقع فريسة سهلة فى يد الصليبيين ، فقال عنه ابن أيبك « إن رأى الأمير فخر الدين كان رأيا ذميما ، فلو أقاموا مع مشيئة الله عز وجل فى دمياط ما قدر عليها الفرنج » الدر المطلوب ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ . أما المقريزى فقال « عدت هذه الغفله من الامير فخر الدين من أقبح ما يشنع به » السلوك ، حـ ١ ق ٢ ص ٣٣٥ : أما أبو المحاسن فيرى أن ما حدث « كان من قبيح رأى فخر الدين » النجوم ، حـ ٦ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

أما أمراء بني كنانه فقد لقوا جميعهم مصرعهم ، حيث أمر الصالح أيوب بصلبهم جميعا ، وكانوا نيفا وخمسين أميراً ، حتى يكونوا عبره لكل من تحدثه نفسه بالخيانة وعدم الصمود في وجه الأعداء (١) .

ولم يلبث الصالح أيوب أن أصدر أوامره بعد أن إستولى الصليبيون على دمياط باتخاذ المنصورة خط دفاع أول ، وأن يعسكر بهـــا الجند في مواجهة الصليبيين المعسكرين بدمياط (٢) .

ولم تمض أيام قليلة إلا وتوفى الملك الصالح نجم الدين أيوب بالمنصوره في ١٥ شعبان عام ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) فتولى الأمير فخر الدين تدبير السلطنة ، وقيادة الجيش المصري المرابض بالمنصورة ، وتحمل عبء مقاومة حملة لويس التاسع المرابض بدمياط (٣) .

استشهاد الامير فخر الدين اثناء الجهاد ضد الصليبيين:

وما أن علم لويس التاسع بخبر وفاة الملك الصالح أيوب ، حتى أخذ يفكر جديا

---

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٨ ،
ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .
ابو المحاسن . النجوم ، جـ٦ ص ٣٢٩ — ٣٢٠
(٢) أبو الفدا . المختصر ، جـ٣ ص ١٧٨ — ١٧٩ ،
المقريزي . السلوك ، جـ١ ق٢ ص ٣٣٧ ،
أبو المحاسن . النجوم ، جـ٦ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .
(٣) ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ، ٢٥٨ .

فى مهاجمة المعسكر الإسلامى ، ويشير ابن خلدون[1] إلى أن الصليبيين بمجرد أن علموا بنبأ وفاة الصالح أيوب « شرهوا إلى قتال المسلمين » .

وكان المسلمون قد أحكموا سيطرتهم على كل منافذ مدينة دمياط حتى لا يمكنوا الجيش الصليبي من التقدم ناحية المنصورة ، لذلك فشلت كل المحاولات التى بذلها لويس التاسع فى الوصول إلى المنصورة . غير أن أحد البدو دلهم على مخاضة فى بحر أشموم طناح توصلهم إلى المنصورة دون أن يشعر بهم الجيش الإسلامى فى مقابل قدر من المال [2] .

وفى يوم الثلاثاء الخامس من ذى القعدة عام ٦٤٧هـ (٨ فبراير عام ١٢٥٠م) بدأ كونت ارتو Comt of Artois قائد فرقة الداوية وشقيق لويس التاسع الزحف إلى المنصوره عن طريق المخاضه التى أشار بهـــا البدوى ، دون أن يشعر بهم المسلمون [3] وبمجرد وصول الصليبيين إلى المنصورة بدأوا الهجوم على المعسكر الاسلامى، مما أحدث اضطراباً شديداً فى صفوف المسلمين . وكان الأمير فخر الدين فى ذلك الوقت فى الحمام ، وسمع صراخ الجند المسلمين فخرج على الفور

---

(١) العبر ، جـ٥ ص٣٥٩ .

(٢) يشير جوانفيل فى حولياته إلى أنه تقدم لورد أمبرت إلى الملك معلنا إليه أن أحد البدو جاءه مخبرا اياه بأن فى استطاعته أن يدلنا على مخاضه صالحه، وأشار علينا أن ننفقده خمسمائة بيزانت .فوافق الملك على نقده ماطلب على أن يبرهن من جانبه على صدق عهده . (ص١١٣) .

(٣) سبط بن الجوزى . مرآة الزمان . جـ٨ ص٧٧٦، ٧٧٧ .
ابن العميد . اخبار الأيوبيين . ص١٥٩ ،
جوليات جوانفيل ص١١٢ .

وامتطى جواده دون أن يرتدى كافة ملابسه الحربية ، « وساق لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب » ، ولم يكن بصحبة القائد فخر الدين « سوى بعض مماليكه وجنده »[1] . وأثناء سير فخر الدين قابلته مجموعة من الصليبيين فتعرفوا عليه عن طريق شارة الفروسية المعلقة على كتفه والتى سبق أن منحها له الامبراطور فردريك الثانى ، فتوقفوا لمقاتلته[2] ، فلم يكن من المماليك والجند المصاحبين لفخر الدين إلا أن تركوه وحيدا وفروا تاركيه يدافع عن نفسه وحيدا فى مهارة وبسالة ،وأخيرا استطاع أحد الداويه أن يطعنه برمح فى جنبه ثم هجم عليه بقية الفرسان الصليبيين بسيوفهم، فقتل فى ساعته ،(الثلاثاء الخامس من ذى العقده عام ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م)[3] وهو آخر اخوته موتا[4] .

---

(١) ابن ايبك : الدر المطلوب ، ص٣٧٦ ،

أبو الفدا : المختصر ، حـ٣ ص ١٨٠ ،

المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٣٤٩.

(٢) حوليات جوانفيل ص ١٠٨ .

(٣) أبن العميد : اخبار الأيوبيين ، ص ١٥٩ ،

ابن ايبك . الدر المطلوب ، ص ٣٧٦ ،

السبكى : طبقات الشافعية ، حـ٥ ص ١٥٣ ،

المقريزى :السلوك ، جـ ١ ق٢ ص ٣٤٩ ،

العماد الدين الحنبلى : شذرات الذهب ،حـ٥ ص٢٢٨ — ٢٣٩ ،

Gottschalk : Awlad ol Shaykh, p. 766.

(٤) ابو شامه : الذيل ص ١٨٤ .

ومن العجيب أن مماليكه الذين تركوه وحيداً أمام الصليبيين وفروا هاربين بمجرد أن علموا بقتله ، سارعوا إلى داره ، فكسروا صناديقه ونهبوا أكثر مافيها ، ونهبت أمواله وخيله حتى أبواب داره لم تسلم من السرقة !!(١) .

وعلى رأى سبط بن الجوزى(٢) ـــ وكان معاصرا لهذه الأحداث ـــ لم ينفع فخر الدين « تربية مماليكه وإحسانه إليهم » !

وهكذا خربت دار الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ خربها امراؤه ومماليكه أولئك الذين « كانوا يتمنون أن ينظر إلى أحدهم نظره »(٣) .

وهكذا أنكر أمراء ومماليك فخر الدين جميل وفضل أستاذهم عليهم ، وفعل مثلهم المعظم تورانشاه بن الملك الصالح أيوب بعد وصوله إلى الديار المصرية ، حيث أخذ مماليك فخر الدين الصغار وبعض أمتعته بنصف قيمتها ، وأساء كثيرا إليه ، فقلب حسناته سيئات فكان يقول عليه : « أطلق ـــ اى فخر الدين ـــ الكتان والسكر وانفق الأموال وأطلق المحابيس فأيش ترك لى أنا »(٤) . وعلى هذا النحو

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٧٦٦—٧٧٧ ، المقريزى :السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٣٥١ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ص ٧٧٦ — ٧٧٧

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ص ٧٧٧ ، السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٥ ص١٥٢ .

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ص ٧٧٧ . المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٣٥٣ .

كان حفظ فخر الدين للملك وتدبيره البلاد عقب وفاة الصالح أيوب « من أكبر ذنوبه »[1] !! وهكذا انتهت حياة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ الذى اعترف بفضله كافة المؤرخين المسلمين وغير المسلمين[2] .

* * *

وبوفاة الأمير فخر الدين يوسف ، انتهى دور أسرة شيخ الشيوخ فى مضمار الحرب والسياسة والعلم والمعرفه فى العصر الأيوبى .

---

(١) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، جـ٨ ص ٧٧٧ .

(٢) من العبارات التى تكررت فى مدح فخر الدين انه كان « عاقلا جواداً مدبراً خليقا بالملك محبوبا إلى الناس » .

أنظر سبط بن الجوزى . مرآة الزمان جـ٨ ق٢ص ٧٠٧

السبكى . طبقات الشافعية ، جـ٥ ص ١٥٢ — ١٥٣ ،

المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص٣٥٣

أبو المحاسن : النجوم ، جـ٦ ص ٣٦٣ .

وقال عنه جوانفيل فى حولياته « انه كان اعظم المسلمين مكانة » (ص١٠٨) .

المصادر والمراجع العربية

- ابن أبى الهيجاء : (عصر صلاح الدين الأيوبى)
تاريخه
مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ٩٤٥

- ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ) أبى الحسن على
الكامل فى التاريخ
المطبعة التجارية

- ابن أيبك : (ت ٧٦٩ هـ) أبى بكر بن عبد الله
الدر المطلوب فى ملوك بنى أيوب
القاهرة ١٩٧٢ م

- ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ) عبد الرحمن بن محمد
العبر وديوان المبتدأ والخبر
القاهرة ١٩٧٦ م

- ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ) شمس الدين أحمد
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
القاهرة ١٣١٠ هـ

- ابن سعيد الأندلسى : (٦٨٥ هـ) على بن موسى
المغرب فى حلى المغرب
القاهرة ١٩٥٣ م

- ابن طباطبا : (ت ٧٠٩ هـ) محمد بن على

الفخرى فى الآداب السلطانية

القاهرة ١٩٢٧ م

— ابن العبرى : (ت ٦٨٥ هـ) أبى الفرج بن هرون الملطى

تاريخ مختصر الدول

بيروت ١٨٩٠ م

— ابن العديم : (ت ٦٦٠ هـ) كمال الدين أبو القاسم عمر

زبدة الحلب فى تاريخ حلب

دمشق ١٩٥٤ — ١٩٥٨

— ابن العميد : (ت ٦٧٢ هـ) الشيخ جريس بن العميد

أخبار الأيوبيين

Bulletin d' etudes orientales, Tom xv, 1955—57 .

— ابن الفرات : (٨٠٧ هـ) محمد عبد الرحيم

تاريخ الأمم والملوك

مخطوط بدار الكتاب المصرية رقم ٣١٩٧ تاريخ

— ابن واصل : (ت ٦٩٧ هـ) جمال الدين محمد بن سالم

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٧٨

— ابن الوردى : (ت ٧٤٩ هـ) عمر بن الوردى

تاريخ ابن الوردى المعروف بتتمة المختصر

بيروت ١٩٧٠

— أبو شامه : (ت ٦٦٥ هـ) شهاب بن محمد

تراجم رجال القرنين السادس والسابع

المعروف بالذيل على الروضتين

القاهرة ١٩٤٧

ـ ابو الفدا : (ت ٧٣٢ ﻫ) عماد الدين اسماعيل
المختصر فى أخبار البشر
القاهرة ١٣٢٥ ﻫ

ـ ابو المحاسن : (ت ٨٧٤ ﻫ) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
النجوم الزاهرة فى محاسن ملوك مصر والقاهرة
طبعة دار الكتب المصرية .

ـ : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى
القاهرة ١٩٥٦ م

ـ جمال الدين الشيال .
فى التاريخ
: مقال فى كتاب أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية
القاهرة ١٩٧٠

ـ جوانفيل :
: القديس لويس
القاهرة ١٩٦٨

ـ الحنبلى : (ت ١٠٨٩) عبد الحى بن احمد بن العماد
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب
القاهرة ١٣٠٠ ﻫ

ـ الحموى : أبى الفضائل محمد على
تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان
أو التاريخ المنصورى
مخطوط منشور بالتصوير موسكو ١٩٦٠

ـــ زامباور :

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى

القاهرة ١٩٥٠

ـــ الزبيدى : (ت ١٢٠٥ هـ) المرتضى

ترويح القلوب فى ذكر الملوك بنى أيوب

دمشق ١٩٧١

ـــ زيان :

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية بمصر زمن صلاح الدين الايوبى

مجلة كلية الآداب ـــ جامعة القاهرة عدد ٣١

القاهرة ١٩٧٥

ـــ الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر عصر سلاطين

المماليك القاهرة ١٩٧٦

ـــ سبط بن الجوزى : (ت ٦٥٤ هـ) يوسف بن قزاوغلى

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان

حيدر أباد ١٨٥١

ـــ سبط بن العجمى : (ت ٨٨٤ هـ) موفق الدين أبى ذر أحمد

كنوز الذهب فى تاريخ حلب

مخطوط بدار الكتب رقم ٨٣٧ تاريخ

ـــ السبكى : (ت ٧٧١ هـ) تاج الدين أبى النصر عبد الوهاب

طبقات الشافعية الكبرى

القاهرة ١٣٢٤ هـ

ـ سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام القاهرة ١٩٦٥

ـ السيوطى : (ت ٩١١هـ) جلال الدين عبد الرحمن

حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة دمشق ١٩٣٢

ـ الصفوى (ت ٧٦٤هـ) صلاح الدين خليل بن أيبك

الوافى بالوفيات دمشق ١٩٥٩

ـ على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية القاهرة ١٩٧١

ـ العينى : (ت ٨٥٥هـ) بدر الدين محمود

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان

مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ

ـ القلقشندى : (ت ٨٢١هـ) أبى العباس أحمد

صبح الأعشى فى صناعة الانشا طبعة دار الكتب

ـ محمد رمزى : القاموس الجغرافى القاهرة ١٩٥٤ – ١٩٦٣

ـ المقريزى : (ت ٨٤٥هـ) تقى الدين أحمد بن على

السلوك لمعرفة دول الملوك القاهرة ١٩٥٦ – ١٩٧٤

ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

بولاق ١٢٧٠هـ

ـ النابلسى : (ت ٦٦٠هـ) عثمان بن ابراهيم

كتاب لمع القوانين المضية

Bulletin d' etudes Orientales, Vol XVI, 1958 – 60

ـ النعيمى : (ت ٩٢٧هـ) عبد القادر بن محمد

دمشق ١٩٤٨

- النويرى : (ت ٧٣٣هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
نهاية الأرب فى فنون الأدب
مخطوط بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة

- ياقوت : (ت ٦٢٦هـ) شهاب الدين أبى عبدالله الحموى
معجم البلدان
بيروت ١٩٦٨

- يحى بن الحسين (ت ١١٠٠هـ)
غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى
القاهرة١٩٦٨

المراجع الاجنبية

— Alfred Duggan :

The Story of the Crusades . London, 1963.

— Archer : (T. A.) :

The Grusades. London, 19?6

— Gabrielle (F.) :

Arab Historians of the Crusades

London, 1967.

— Gottschalk (H. L.)

Awlad el Shaykh.

(Encyclopaedia of Islam, Vol 1, pp. 765—766, 2nd edition)

— Grousset (R.) :

Histoire des Croisades et du Royaume

France de jerusalem. paris, 1934.

— Kantorwicz (Z) :

Fredrick the Second London 1931

— Lane — pool (S.) ;

A history of Egypt in the middle ages London, 1914

— Stevenson (W.B) ,

The Crusaders in the East, new impression

Berut 1968

— Tout (T.F.) :

The Empire and the papacy, London, 1899

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب
٤٧٢٢ / ١٩٧٨م
الترقيم الدولى
٩٧٧ — ٧٢٥٧ — ٦٧ — ٨

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع كامل صدقي بالفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦